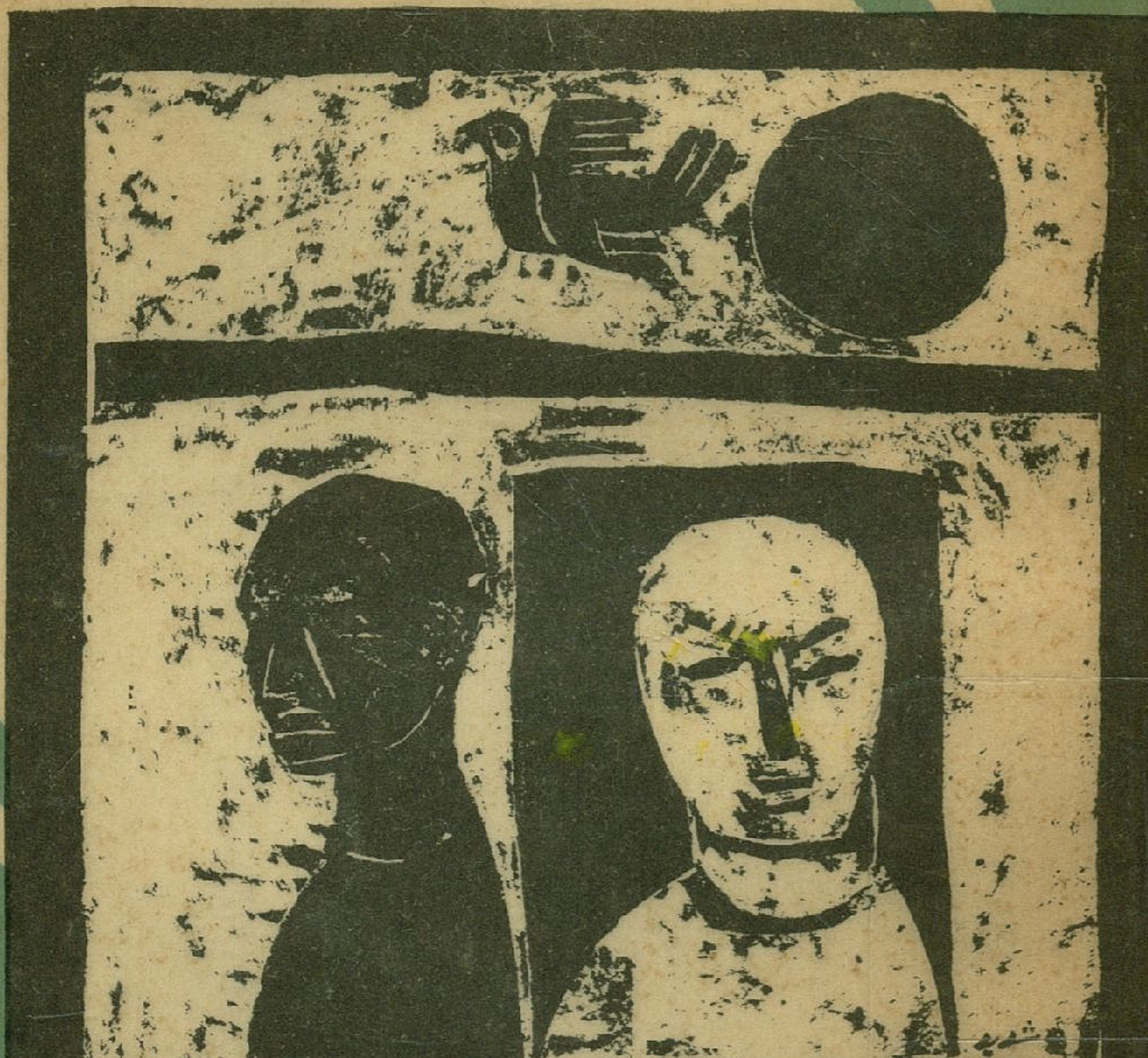
اقرأ

مع الآخرين



أنيس منصور

دار المعارف بمصر

٥

مع الآخرين

أنيس منصور

مع الآخرين

اقرأ
٢٧٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٩ – مارس سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

كلمة أولى . .

قرأ اثنان من الأدباء الروس خطاباً بعث به تولستوى لأحد أصدقائه . وفكر الاثنان فى أن يزورا هذا الكاتب العظيم .

الاثنان هما : جوركى ، وتشيخوف . . والخطاب يقول :

« يجب أن تنتج ويجب أن تعبر عن كل ما هو ناضج فى نفسك ، فلا أحد يستطيع أن يعبر عنه سواك . لا يهم أبداً ما يقوله الناس عنك . لا يهم مايقيمونه من حفلات لك . لكن الذى يهم جداً . وفى الدرجة الأولى . هو أن تحس أنك تقول شيئاً جديداً وشيئاً عاماً يحتاج إليه الناس . وعندما تحس بذلك . وتعمل من أجله . فما أعظم سعادتك فى هذه اللحظة » .

وفى نفس الوقت أحس هذان الأديبان أنهما يجب أن يحاسبا صاحب هذا الخطاب . أن يسألاه إن كان لديه شىء جديد . إن كانت أفكاره الناضجة تنفع الناس . إن كان النضج وحده يكفى . فمن الممكن أن تنضج ثمرة على شجرة وتتعفن . وإذا سقطت إلى الأرض إلى الناس ، كانت جثة هامدة . وإن كان هذا الفنان العظيم لا يزال متمسكاً بهذه النصيحة وإن كان لديه شىء يقوله لهما معاً أو واحداً واحداً . .

وفى سنة ١٩٠١ وفى « يالتا » التقى الثلاثة فى لحظة باهرة نادرة . .

وكان تولستوى فى الرابعة والسبعين . .

وكان تشيخوف فى الثانية والأربعين . .

وجوركى فى الثالثة والثلاثين . .

وكل واحد منهم يمثل طبقة . وأسلوباً فى التفكير وفى الحياة . . تولستوى يمثل الأرستقراطى الإقطاعى الفردى فى تفكيره وفى قضاياه .

وهو فى نفس الوقت نموذج متكامل لأبناء القرن التاسع عشر . .

وتشيخوف يمثل المثقف من أبناء الطبقة الوسطى ويحتفظ فى نفس الوقت بطبيعة العلماء الذين يقدسون التجربة . . يرون أن الحقيقة الوحيدة هى التجربة وأنها الوسيلة الوحيدة لمعرفة شىء . أو لتغيير شىء من الواقع . . وهو أيضاً لا صبر له على الأفكار الفلسفية المجردة . . وإن كان فى نفس الوقت عاجزاً عن ربط أفكاره فى إطار واحد متكامل . .

وجوركى يمثل الطبقة العاملة . والجماهير الثورية . ولكنه واثق من هدفه . متأكد من معلوماته . وهو يأخذ الفن مأخذاً جاداً صابراً . .

أما النتيجة التى خرج بها هذان الاثنان من لقاء عملاق الأدب الروسى فهى : أنه فنان عظيم وأنه ساحر ولكن فى غير زمنه . وأنه وصل إلى المحطة بعد قيام القطار . وأنه الآن يعيش فى عصر النمو الصناعى والإرهاب الرسمى . والظلم الاجتماعى . وإنه جبل منعزل عن الوديان الشعبية . وإن هناك معابد جديدة تقام فى كل مكان . أما المناسبة فهى ظهور الهة جديدة . . وشروق شمس جديدة . .

يقول تشيخوف : هذا الرجل كان يملأ نفسى . . والآن لم يعد له مكانة فيها . . لقد ترك نفسى وتركها خالية . . وترك بيتى وحياتى أيضاً . .

ويقول جوركى : إنه انعزالى وهو من أنصار المقاومة السلبية ومقابلة الإساءة بالإحسان . والعنف بالرفق . والمأساة بالإخلاص الفردى . . وكان شعورى فى كلمتين : القرف والفزع !

وبعد هذا اللقاء اتجه كل واحد إلى طريقه . .

وازداد اطمئنان كل واحد منهما على سلاحه وعلى قدراته . . وعلى أنه فى استطاعته أن يمسك الراية التى سقطت من يدى تولستوى .

كأنهما اثنان من الشبان جمعا مبلغاً من المال وذهبا به إلى البنك . وبدلا من أن يشعر كل واحد منهما بتفاهة ما عنده من أموال ،

وضآلة المجهود الذى بذله كل منهما فى جمعه، أحس بتفاهة الأموال الموجودة فى البنك . وكل ما أعجبهما فى البنك هو البناء فقط . . ولكن الأوراق المالية التى امتلأ بها البنك زائفة . . قديمة . . ألغيت من وقت طويل !

إن الشكل فقط هو الذى أعجبهما . . أما المضمون فهو كالطعام البايت . أو كالثمرة المتعفنة . . أو كالقرن التاسع عشر . عند ما يتطلع إليه أبناء القرن العشرين !

* * *

وهذا اللقاء تاريخى نادر وباهر . .

فليس يحدث كثيراً أن يصادف الإنسان فى حياته الطويلة كتاباً يهزه . . ويفتح عينيه على شىء جديد . . ولا حادثة تضعه على الطريق السليم . . ولا شخصاً يحول تفكيره من اليمين إلى اليسار . .

فهذا لا يحدث كثيراً . وإذا حدث وبقوة وبصورة إيجابية فهذا شىء نادر . .

ومن الممكن أن يظل الإنسان طول عمره عبارة عن قفل متين لا يصادف مفتاحاً . .

أو لغماً عائماً لا يصادفه جسم يجعله يتفجر . .

أو قمقماً مغموراً فى خضم النسيان لا تمتد له يد تنزع غطاءه وتكشف طاقته الهائلة . .

أو يظل وجهاً هائماً يبحث عن مرآة . .

فيبقى مجهولا للناس . . ومجهولا لنفسه أيضاً . . فهو لا يعرف قدرته . ولا يعرف ما الذى يستطيع أن يعمله . ولا أين يعمله . ولا كيف يعمله . ومن الممكن أن يمشى فى طريق طويل . يغريه المشى بالاستمرار ويغريه الاستمرار بالاطمئنان إلى قدرته . .

ولكن عند ما تتاح له فرصة نادرة . . ولو مرة واحدة فى حياته . .

فينفتح القفل ويتفجر اللغم ويرى لأول مرة ملامح وجهه.. ويرى ما تحت الوجه من استعداد وقدرة على أن يعمل وينتج ويغير نفسه. بل يغير ما حوله أيضاً.

هناك فقط يشعر الإنسان شعوراً متناقضاً..

فهو يشعر بخيبة الأمل. لأن أفكاره القديمة كلها قد سقطت عنه كثوب قديم.. ويشعر فى نفس الوقت بأن فرصة جديدة قد أعطيت له لكى يغير من نفسه ويستدرك ما فات..

ويشعر بشىء أعمق من هذا. وأكثر قسوة..

وهو أنه كان يلقى بأسباب فشله على أنه لم يعرف طريقه بعد.. على أنه لم يكتشف نفسه بعد.. على أنه ليس هو الذى يعمل كل شىء.. وإنما إنسان آخر، لم يهتد إلى معرفة حقيقته بعد. ولكن بعد أن يعرف الإنسان قدراته واتجاهاته يصبح فى هذه الحالة مسئولا عما يفعل. ومطالباً بأن يغيّر من نفسه ومن الآخرين أيضاً..

ولذلك رأى تشيخوف وجوركى أن تولستوى العظيم قد تباعدت المسافة بينه وبين نفسه.. وبينه وبين الناس.. وأنه لذلك نسى ما كان يقوله.. وأن الذى يذكره هو شىء لم يعد له سحر.. وأن تولستوى يطبع عملات ورقية ليس لها غطاء ذهبى.. والغطاء الذهبى هو الناس. أو هو الواقع.. هو التجربة الحية.. أى التجربة التى يعيشها هو أيضاً.. فتولستوى كان حياً. ولكن بلا تجارب.. بلا صلة بالناس..

وما أكثر الأحياء الذين بلا تجارب..

وما أندر اللحظات التى يحس فيها الإنسان أنه حى وأن حياته قوقعة.. ضيقة محدودة خانقة..

وما أندر وما أبهر اللحظات التى يخلع فيها الإنسان قوقعته ويقدمها قرباناً للواقع الجديد!

أنيس منصور

الطريق الذى ينتهى بالنوم !

كان الخوف من المرض هو الحائط الرابع لكل غرفة فى بيتنا، فقد فتحت عينى على وجوه شاحبة وأجسام تتلوى . وفتحت أذنى على آهات وصراخ . وأمسكت عقلى عن التفكير فى أى شىء . لأنه لا قيمة للتفكير فى العلاج . فالأطباء يدخلون ويخرجون وعلى وجوههم نفس الابتسامة الفارغة التى فى لون الورق الذى يكتبون عليه أسماء الأدوية التى لا قيمة لها . . وخرج المرض ودخل الأطباء . وبقى الخوف من المرض عميقاً فى نفسى . واتخذت من المرض ، موقف الحذر . فظننت أن الوقاية خير من العلاج . ولم أعرف ما معنى الوقاية . الوقاية من أى شىء ؟ وكيف وإلى متى ؟ ولم يخطر على بالى أننى أخاف من الموت . فلم يكن خوفى من المرض سببه أن المرض هو العتبة الأولى للموت . لأنه من الممكن أن يموت الإنسان بلا مرض . وأن يمرض سنوات ولا يموت . ولكن خوفى كان غامضاً كان بلا حدود . وحاولت أن أجعل لنفسى درعاً تقينى من المرض . ومن الوقاية . حتى تعبت من أن أظل فى حالة دفاع عن الجسم ضد عدو لا أعرفه . ولا أدرى من أين يجىء . وحرصت على أن أعرف كل الخائفين من المرض مثلى . وشعرت بالارتياح عند ما وجدت أن عددهم كبير جداً . وحاولت أن أستعين بخبراء فى الأسلحة المضادة للمرض . فكان لى أصدقاء من الأطباء . وكل واحد متخصص فى مرض . وظننت أن هؤلاء الأطباء هم الأنوار الكاشفة لغارات الجراثيم . وتوهمت سنوات طويلة أننى فى مأمن من الأمراض . . فقد أقمت المدافع والصواريخ على الحدود التى تفصل بينى وبين العالم الخارجى . ولم أكن

أتصور أن الأرق الذى كان يلازمنى سنوات طويلة . ليس إلا حالة نفسية لمن يعيش طول عمره فى حالة حرب مع الطعام والشراب والهواء . واليد التى تمتد والفم الذى يقترب والباب الذى ينفتح فجأة . والنافذة التى يتسلل من تحتها الهواء الذى يشبه الإبر الباردة . .

ولكن جرثومة واحدة كانت قادرة على أن تنفذ من وراء هذه الحراسة الشديدة . . إنها جرثومة الزكام والأنفلونزا والسعال . إنها تنتقل إلى جسمى بصورة خرافية . إذ يكفى أن أسمع عن إنسان أنه مزكوم حتى أعطس فوراً . ليس هذا تشنيعاً وإنما هى حقيقة . فالزكام عندى هو مسألة نفسية . وليس مسألة جسمية . ومعنى ذلك أن هذه الحراسة الشديدة وهذه المدافع المزودة بالحبوب والأقراص والزجاجات والحقن لا تستطيع أن تحميني من نفسى . فالزكام والسخونة والرعشة مسألة نابعة منى أنا . فانا إذن محتاج إلى من يحميني من نفسى ، من مخاوفى العميقة جدا . وهذا ما يعجز عنه الأطباء .

وعند ما أيقنت أن الأطباء عاجزون عن حمايتى منى . بدأت أشعر بأن هذه الحراسة ضعيفة وبأن هذه الحراسة لا قيمة لها . وأن الآية الكريمة التى تقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، لا تعنى الموت فقط ، وإنما تعنى أبسط أنواع الجراثيم . . وأغمضت عينى عن الحراسة ، وعن الأطباء ، وعرفت النوم ، وعرفت أن النوم سببه عدم الخوف . وأن الذين يخافون لا ينامون . وأن أكثر الناس نوماً هم أقلهم خوفاً . وأن النوم أنقذنى من مرض اسمه : الخوف من المرض . ومن مرض آخر اسمه : الإيمان بالطب . وقد علمنى النوم أنه أعظم طبيب وأن راحة الأعصاب تؤدى إلى انتظام الدورة الدموية والجهاز الهضمى ، وإلى انتعاش الأعصاب . . وقرأت أن النوم هو أعظم علاج للبشرة . والبشرة ليست إلا عضواً يتغذى على الدم ، والدم يصبح نقياً بسبب النوم

الذى ينقذنا من الإمساك الذى هو المصدر الحقيقى لكل سموم الدم وكل أنواع الصداع . . وعرفت أيضاً أن الحيوانات التى تنام كثيراً ، يطول عمرها .. فالسلحفاة أطول الحيوانات عمراً لأنها تنام معظم حياتها ، والثعلب أقصر حيوانات الغابة عمراً ، لأنه أكثرها حذراً ، وأكثرها خوفاً وأقلها نوما !

ودخلت كلمة « الحساسية » حياتى . . كما دخلت حياة الكثيرين جداً من الناس . . وهى كلمة اخترعها الدكاترة لأنها الشماعة التى يعلقون عليها عجزهم عن علاج أى مرض . يكفى أن يقول الطبيب : إن عندك حساسية ضد البرد وضد الحر . . وضد الأكل وضد الشرب . . وضد الطب .. وضد الدكاترة أنفسهم . . يكفى أن يقول هذا لتقتنع أن مرضك هذا طبيعى ، وأنه كان لا بد أن يحدث ، وأن علاجك لم يخترع له العلم الحديث أى دواء . .

والحساسية معناها أنه من الممكن أن يصاب الإنسان بأى مرض . فى أى وقت . وأنه يستحيل علاجه . لأن الطبيب لكى يعالج المريض ، لابد أن يعرف الشىء الذى هو « حساس » بالنسبة للمريض . . وأحدث كتب الحساسية تقول إن كل شىء يلمسه الإنسان ويتناوله هو حساس بالنسبة له . ومعنى ذلك أنه لا يوجد أى مصدر محدد للاصابة بالحساسية . أى إن هناك مئات الألوف من الأسباب لشعورك بأن لديك رغبة فى الهرش . فالهرش هذا سببه أن عندك حساسية . . ولكن لأى شىء ؟ هذا هو السؤال الذى لا جواب عليه . .

وتحددت كل آلامى فى مكان واحد من جسمى هو المصران الغليظ . وأول تشخيص للمصران الغليظ هو أن المصاب به مرهق نفسياً . وأنه يجب أن يستريح . وأن ينام على الأقل . ولكن كيف ينام العاجز عن النوم . . التشخيص الثانى يقول لك : السبب هو كثرة المنبهات . . والعلاج

هو الإقلال من المنبهات. ولكن الإقلال من المنبهات يقلقنا أكثر ويزعجنا أكثر ويباعد بيننا وبين النوم. وخصوصاً إذا كانت القهوة كيفاً لا مفر منه.. التشخيص الثالث يقول لك: امتنع عن نصف الأطعمة والفاكهة وكل المنبهات ثم يجب أن تتناولها كلها مسلوقة..

* * *

وعرفت عدداً من الأصدقاء يعيشون على المسلوق بسبب المصران الغليظ. ومن الأدباء والمفكرين على وجه الخصوص.. وفى مقدمتهم توفيق الحكيم.

وتعلمت من توفيق الحكيم أن أضع فى جيبى جدولا بالأطعمة التى يجب ألا أتناولها كل يوم، والتى يجب أن أتناولها مرة فى الأسبوع والتى يجب أن أتناولها إلا بأذن الطبيب.

وسألت توفيق الحكيم عن الأمراض التى يخاف منها، ولم يشأ الحكيم أن يذكر أسماء متاعبه، والأمراض التى يخاف منها. ولكنه أكد لى إيمانه بالمجلة الطبية التى نقل عنها الجدول، وأكد لى أيضاً أنه عندما يضع الجدول فى جيبه يشعر بالمناعة ضد أى مرض!

وعاودنى الخوف بصورة عنيفة ولم أعد قادراً على أن أتردد على أى طبيب. واكتفيت بإدمان التحاليل، فلا يكاد يمضى شهر حتى أذهب إلى طبيب ليحلل لى كل السوائل التى فى جسمى تمشياً مع النصيحة الفرعونية القديمة التى تطلب من كل إنسان – سليماً أو مريضاً – أن يتردد على الطبيب مرة كل شهر. ولا أعرف إن كان بين الفراعنة أناس زادت أعمارهم على مائة سنة. ربما كان رمسيس الثانى هو أطول الملوك عمراً فقد كان أكثر حاشيته من الأطباء!

وقد رأيت الدهشة على وجوه طلبة «كلية الطب بجامعة عين شمس»

عند ما رويت لهم أنني دخلت إحدى غرف العمليات لكي أخلع ضرسي وتحت تأثير من البنج الكامل . . ولم أذكر لهم أن خلع الضرس بالبنج الكامل ، وقطع الأظافر تحت تأثير البنج الكامل ، كان من اختراعي واكتشافي . فقد قرأت كتاباً لأحد العلماء الألمان عن فائدة البنج للذين يشكون من الأرق المستمر والقلق الدائم . وإن الأرق والقلق ليسا إلا صورتين متلازمتين لشيء واحد هو : الحساسية !

- فلا الطلبة صدقوني. ولا الممرضات اللاتي وقفن بملابسهن البيضاء كأنها أكفان متحركة في غرفة العمليات . ولم تكن ترابيزة العمليات إلا تابوتاً فرعونياً لواحد يكاد يموت من ألم في ضرسه ! .

* * *

وفي يوم قابلت صديقاً . وقبل أن أضع يدي على جنبي الأيمن . وقبل أن آخذ نفسي وأقول : آه . . تغير لونه وشكا بأعلى صوته من آلام وأوجاع لا أول لها ، ولكن آخرها في مكان واحد في القاهرة هو عيادة المرحوم أنور المفتي . وشكوت له من الباب المغلق دائماً في وجه أي مريض . ومن التليفون المرفوع دائماً . وروى لي الصديق أنه قابل الدكتور أنور المفتي وأنه نصحه بعدم أكل البصل . فقط بالامتناع عن أكل البصل . وفي هذا علاج له من كل متاعب المعدة والمصارين والصداع . ولم يصدق الصديق أن متاعبه المعقدة ، لها سبب واحد وبهذه البساطة . . وفهمت منه أن الدكتور أنور المفتي رغم أنه رجل جاد ، فإنه يحب النكتة أيضاً ، ولكنه يستبعد أن يكون الامتناع عن البصل إحدى نكت الدكتور أنور . .

. وقررنا أن نذهب معاً لمقابلة الدكتور أنور المفتي وذهبنا معاً نجر وراءنا الخوف والحساسية . وملأت جيوبي بكل الروشتات التي عندي

من أطباء فى مصر وفى إيطاليا وفى أمريكا وفى اليابان وفى أستراليا . . وعشرات من التحاليل. وفتحنا باب الدكتور المفتى بقوة . لا أعرف إن كانت قوتى أو قوة هذا الصديق . والعيادة عادية جداً . أو أقل من عادية . ولكن الطبيب هو الذى فوق العادة . وقابلنى تمورجى كأنه يعمل فى قهوة الفيشاوى. يخرج من غرفة المرحوم أنور المفتى . وانتهزها الصديق فرصة وكتب له خطاباً ألقاه من تحت الباب . وكانت كلمات الخطاب تقول : يا مسيح القرن العشرين . أنقذ مريضك المريض جدا . . وبينما كنت سائراً فوق كوبرى قصر النيل وجدت زحاماً من الناس . ولما اقتربت منهم وجدتهم يمسكون صديقاً قرر أن يلقى بنفسه فى النيل . ولما سألوه عن السبب قال : إما النيل وإما الدكتور أنور المفتى . .

وكنت أنا هذا الصديق . .

وبعد ساعة دخلت . وبحركة لاشعورية نزعت الجاكتة وأفرغت جيوبها . وأضاءت ابتسامة الدكتور أنور المفتى الطريق إلى الترابيزة الطويلة وتمددت وقلت : آه . . ولم يكن قد لمسنى . . وضحك وضحكت . .

وراح يتحدث معى فى موضوعات لا علاقة لها بمرضى أو بالطب ولم يكلف خاطره إلقاء نظرة واحدة على الروشتات التى ملأت جيوبى . وعادت أصابعه ترن على بطنى وضلوعى وظهرى كأنه ساحر فى أواسط أفريقيا . وكأننى طبلة مصنوعة من جلد الحيوانات الوحشية . . ورحت أروى للدكتور أنور تاريخ حياة بطنى ومعدتى ومصارينى . . وأقول له إنها أحيانا تموء كالقطة ، وتنبح كالكلب وتتلوى كالأفاعى . وكأن الدكتور أنور المفتى يستمع إلى تلميذ قد حفظ كتاب الإنشاء . . وكأنه لا يعجبه هذا الأسلوب من الكتابة . ولا هذه الطريقة فى الحفظ . وطلب منى أن أرتدى ملابسى . وأن أقوم ، وأكد لى أن شفائى مؤكد وأنه يريد أن يرانى بعد شهر من الآن . .

وعندما خرجت من عيادة الدكتور أنور المفتى نسيت أن أمر على

لأجزاخانة لكي أشترى الأدوية التي نصحني باستعمالها . ووقفت أمام لعيادة أدق بيدى كل المناطق التي وقعت يده عليها . . ولكن لم أشعر بأى ألم . . . . لا فى الجانب الأيسر ولا الأيمن واختفى الصداع . . واختفى الخوف وكأنني قد أمنت على حياتى ضد المرض .·. وضد شيء أقسى من المرض ومن أى مرض وهو : الخوف . .

وقابلت أصدقائى الذين كانوا يشكون من مثل مرضى .. وأعطيتهم أسماء كل الأدوية التي وصفها لى أنور المفتى . وبعضهم كان يستقبلها بدهشة ، . ولم أعرف معنى هذه الدهشة إلا بعد وفاة الطبيب العظيم أنور المفتى . لقد كانت الأدوية بسيطة جداً . إنها عبارة عن تسع زجاجات . أما هذه الزجاجات فهى مليئة بالفحم والأعشاب الملينة . . أما الزجاجة العاشرة أو الزجاجة التي تضم هذه الزجاجات التسع فلا توجد فى أية أجزاخانة . إنها موجودة الآن فى القبر . . إنها أنور المفتى !

آه . . أقولها الآن من جنبى الأيسر ومن جنبى الأيمن . . أقولها بالأصالة عن نفسى . . وبالنيابة عن جسمى . . لقد مات الطبيب . وعاش الإنسان . . ماتت حكمته ، ولم يبق إلا قلبه يخفق فينا امتناناً له . وبكاء عليه .

مرحباً أيها العدل

أحياناً ينتابك شعور يقضى على كل شعور آخر . .

أحياناً يلتصق بك الشعور ويصبح توأما لا ينفصل عنك، فيعترض طريقك ؛ ويطبق جفنك ، ويسد أذنك . . ويجعل أعضاءك كلها بلا وظيفة . . بلا عمل . .

لقد جربته وعانيته واستسلمت له ورأيت الدنيا به . . وانتزعت نفسى منه . . ولكنى مثل شيال كان يحمل حقيبة ثقيلة فوق رأسه . . ثم ألقاها على الأرض . . ولكن وما يزال رأسه يوجعه !

* * *

حتى عند ما تنقلت بين أركان الدنيا كان كل شىء متفتحاً ، يعانق بعضه بعضاً . . إلا أنا !

فالطريق من الهند إلى استراليا إلى اليابان إلى أمريكا مفروش بالسحاب وكنت أصعده على درجات سلم . والسلم ينزل من الطائرة . كأنه لسان ممدود تتحدى به الطائرة سكان الأرض . .

وكنت أنتقل من الأسود إلى الأصفر إلى الأبيض . . من اللؤلؤ إلى البراكين . . من الحار إلى البارد . . وكل شىء حولى يتغير ويتبدل . ويغلى ويجمد . ويثور ويموت . . إلا أنا !

لقد كنت مثل رواد الفضاء . . . محبوساً فى برميل من الحديد . . والبرميل يدور حول الأرض . ورائد الفضاء من داخله مشدود بحبال .. والحبال مربوطة فى وتد . .

وليس هذا البرميل الحديدى المقفل فى وجه الدنيا كلها ، إلا نفسى .

وليست هذه الحبال إلا عيونى . . وليس هذا الوتد إلا قلمى . .
فأنا أدور حول الدنيا . .
والحقيقة أننى جامد . والدنيا هى التى تلف وتدور وتتغير وتتبدل حولى . . كأنها راقصة تنزع كل لحظة فستانا . . وكل لحظة تغير رقصتها وموسيقاها . . ولما يئست من المتفرج القرفان راحت تنزع جلدها . ولما أدركت أنه يغط فى قرف عميق نزعت حذاءها وأمسكت الحذاء فى يدها . . ثم عادت فغيرت رأيها عند ما رأته يصحو فجأة ليتجه إلى سلم الطائرة من جديد . .
كل شىء جديد ومن جديد إلا أنا . .
ولسبب لا أعرفه جعلت نفسى زنزانة لنفسى . . وكنت السجين والسجان معا . .
لسبب لا أعرفه احتبست . .
وأدرت وجهى إلى داخلى . . وقلبت عينى لأرى ما فى أعماقى . . وأصبحت كجورب مقلوب . . وطالت نظراتى . . حتى قصر نظرى . .
تماماً كالأسماك التى تعيش فى أعماق المحيط . . وأعماق المحيط مظلمة. ولذلك تفقد قدرتها على الرؤية . . فتصبح لها عيون تنظر ولا ترى . . عيون مرسومة . . عيون للزينة . . عيون حيرة . . أعضاء بلا وظيفة . .
وانشغلت بوجودى عن الناس . . فانعزلت . وحولت نفسى إلى روبنسون كروزو . . وكانت العزلة هى جزيرتى . . والخرافات والأوهام والمخاوف هى رعاياى ومملكتى . .
وانشغلت بالمباراة الطويلة فى داخلى . . مباراة ليس لها كأس ولا دورى . . مباراة بين عقلى وقلبى . . بين عقلى وأمعائى . . بين أعصابى وعضلاتى . .
وانشغلت بنفسى عن الناس . . فاصطدمت بالناس . . اصطدمت

بهم لأنى أسمعهم ولا أراهم أو أراهم ولا أسمعهم . . ولذلك لم أعتذر . لأنى لم أدرك من الذى اصطدمت به .. ولا لماذا ؟ ولم أفرق بين الحجر والشجر.. بين الناس والأشباح !

تماماً كالذى يركب البسكليت وينشغل بالنظر إلى قدميه . فإنه يدوس الناس!

وانشغلت بالنظر إلى الماضى . وأغمضت عينى عن الحاضر . . فكانت أفكارى على شكل ندم، وكانت آمالى على شكل خوف .. وأصبحت كسائق السيارة الذى ينظر دائماً فى المرآة ، فلا يرى إلا الذين وراءه . .

ولا بد أن يصطدم بالذين أمامه . .

وانشغلت بالخوف من المستقبل عن فهم الحاضر . . فوقعت وترديت ، تماماً كالعاشق الولهان الذى ينظر طول الوقت إلى القمر . . كم حفرة يقع فيها . . ولكنه مثل موجة فى بحر لانهاية له . . مشدود إلى أعلى . . إلى القمر !

وأصبح لى مرصد واحد . .

أسجل منه حركات العالم الذى حولى . .

فأنا المرصد الذى أسجل منه حركات العالم حولى .

ولكن هذا المرصد عدساته مفتوحة على الآخر .. عدساته مبحلقة للكون كله.. ولذلك فالصور كلها «فلو».. لأن فتحة العدسة غير مضبوطة !

وعندما تحس ولو لحظة واحدة فى حياتك وبعمق أن الصور التى تلتقطها للدنيا التى حولك ، مهزوزة . . فلا يوجد بها ضوء واضح ، ولا ظل واضح ، ولا توجد فوارق بين الأشخاص والأشياء . .

هنا فقط يجب أن تعرف أن شيئاً خطيراً قد تسلل إلى نفسك

ولا بد أن يتسلل يوما ما . ولا يوجد إنسان لم يعرف هذا الشيء الخطير :
إنه الملل !

فقد مللت — أنا — نفسي . .

مللت البرميل الحديدى الذى طرت به حول العالم . . الهواء حولى لا حد له ، ولكنى أقفلت نافذتى . . والجاذبية قد انعدمت ، ومع ذلك فقد خلقت لى جاذبية خاصة ، وجعلتها مرئية على شكل حبال . . وعلى الرغم من أننى إنسان ، فقد شددت قيودى إلى وتد ، كأى حيوان فى زريبة لا فى طائرة !

هذا الملل يجعلنى أحس دائماً برغبة واحدة هى أن أتثاءب أمام كل شيء . . فعند ما أرى كل ما حولى فإننى أفتح فمى . وفى نفس اللحظة أطبق عينى وأسد أذنى . .

وأحس أيضاً أن كل شيء حولى لا يكاد يرانى حتى يتثاءب أيضاً . . كأنه لا يريد أن يرانى . . وتتحول الدنيا إلى بلاد نيام نيام . . وأظل أنا الصاحى الذى يتثاءب . . أو النائم الذى يمشى وهو يحلم . .

لقد مررت بسنوات طويلة من الملل .

أو مرت بى سنوات طويلة من الملل . . فأنا كالذى يمشى على ظهر باخرة . . هى تمشى بى . وأنا أمشى عليها . ونقترب من الهدف بسرعة واحدة . .

وكم أحسست أننى أتحرك بين شاطئين من الرمال الناعمة . . وكثيراً ما اقترب الشاطئان وكثيراً ما التصقا حتى أصبحا صحراء من الرمال . . وكثيراً ما تباعد الشاطئان . . وأحسست أن الرمل حى يتحرك . .

وأن الشاطئ ليس إلا نملا حياً . . وكثيراً ما تمددت على هذا الشاطئ النملى . ولم أستطع أن أصرخ . . ولا أن أبكى . فقد مللت صوتى وأنا أصرخ . ومللت الدموع وعيناى تبصقانها على خدى . .

حتى هذا الكلام أحسست أنه علب من ورق . . والورق ملون . . وهذه العلب فارغة . . بلا معنى . . أجسام بلا أرواح . . كأن الذى صنعها نسى أن يضيف إليها المعنى والحياة وأن يركب فى مقدمتها التلسكوب الذى يجعلها تكشف الهدف .

طبيعى جداً أن يمل الورق يدى . .

وطبيعى جداً أن تمل الأوراق ألوانها . . وأن تفقد الألوان معناها . .

ومللت زنزانتى . . التى جعلتها صومعتى أتعبد فيها بأوهام هى عرقى ، وخرافات هى دموعى . .

وعند ما حاولت أن أحطم صومعتى . . لم يكن عندى هدف جاهز . . ولا غاية منشودة . فكنت أحطم فقط . . كلاعب كرة يشوط فى الأوت دائماً . .

ولم أكن أعرف أننى أحطم قدراتى .

وأن صومعتى هى جلدى . وأن مياهها الإقليمية هى ملابسى . .

وحتى عند ما فتحت نوافذى ودخلت الشمس ، لم تكن الشمس دافئة . لقد كانت الشمس التى تظهر فى منتصف الليل فى السويد . باردة مظلمة .. مجرد أعجوبة . ولكنها لا تبعث الدفء ولا الحياة !

وحتى عند ما فتحت نوافذى كنت مثل نوح عليه السلام . . أطلق غراباً لعله يعود وفى منقاره غصن من شجرة على الأرض القريبة . .

وحتى الآن لم يعد الغراب . .

ولكن يكفى أننى فتحت نافذة . . يكفى أننى ملأت صدرى بهواء سليم . . وإذا لم يعد الغراب أرسلت آمالا أخرى . . فلا حياة بغير أمل . .

أو كأننى مثل قواقع اللؤلؤ . .

إذا تسللت إليها ذرة من الرمل فإنها تغوص فى أعماق البحر تفرز عليها

مادة عازلة . . وعلى مر السنين تتحول هذه المادة العازلة إلى حبة لؤلؤ رائعة . .

فقد أقام حيوان القوقع قبراً رائعاً لذرة الرمل . .

وذرة الرمل هى الملل . .

وحبة اللؤلؤ هى العمل . .

والعمل مقبرة الملل . .

ولا عمل بغير خطة واضحة . .

ولا أدعى أن لدى خطة واضحة . . ولكنى بدأت أرى بوضوح . . بدأت أضبط فتحة العدسة . . بدأت أحول « البحلقة » إلى نظرة مركزة . . لم تعد الصورة التى أمامى « فلو » . .

إننى أقيم مقبرة للملل . .

إننى لا أنتظر الملل حتى يموت . . فلا نهاية للملل بموت الإنسان نفسه . . فنحن نفرز الملل ، كما نفرز العرق . . وكما يفرز العنكبوت خيوطه . .

ولكن لا بد أن ندفن الملل حيا . . .

لا بد أن تدفنه وأنت حى وهو أيضاً . فوداعاً . . أيها الملل . .

وإلى غير لقاء أيها الملل . .

ومرحباً أيها العمل!

* * *

قبل أن يصدر كتابى « وداعاً . . أيها الملل » بشهر كتبت أوضح للقارئ لماذا صدر هذا الكتاب وما المعنى الذى وراءه . والذى ورائى أيضاً . وشرحت للقارئ ما الذى عانيته سنوات طويلة من عمرى ، من ملل وقرف وشعور بالغربة والاغتراب والغرابة والمرارة والألفة التى بينى وبين مجتمعات الغجر ، والذين يعيشون فى الدنيا كأنهم غجر . . غجر

فى السفوح ، وغجر على القمم .

وتحدثت عن الضياع الذى يهددنى وعن ضياعى فى ضياعى . . وكيف أننى انشغلت بنفسى عن العالم كله . . كيف حبست نفسى فى نفسى . . فى زنزانة هى أنا . . فكنت السجين والسجن والسجان معاً . . وكيف اصطدمت بالناس لأننى لا أراهم . . لأننى أعمى باختيارى . . وقلت إننى مثل رواد الفضاء محبوس فى برميل من حديد يلف حول العالم . . والحقيقة هى أن الدنيا تلف وتدور وأننى كنت جامداً فى مكانى . . وكل شىء جديد ويظهر من جديد . . إلا أنا . . وقلت إننى مثل رواد الفضاء مشدود فى حبال والحبال مربوطة فى مسمار . . الحبال هى عيونى ، والمسمار هو قلمى . . واعترفت للقارئ أننى مللت كلامى . . مللت المعانى التى تدور فى رأسى . . فكل ما فى يدى علب من ورق ملون . . علب فارغة . . أرتبها وأختارها وأبيعها وتبيعنى أيضاً . ومللت هذا كله . . حتى يدى ملت هذا الورق ، وحتى الورق مل ألوانه ، والألوان ملت معانيها . .

وفى مقدمة كتابى « وداعا . . أيها الملل » وفى صفحات كثيرة أشرت إلى الملل الذى فى حياتنا . . وإلى أننا يجب أن نعرفه لأنه هو المسئول عن كثير من العنف والشذوذ فى أفكارنا وعلاقاتنا . . وأشرت طويلا إلى الذين عرفوا الشعور بالغربة إلى الذين عاشوا كأبناء الغجر . . فى السفوح أو فى القمم ، وإلى الذين عاشوا وحدهم .. وفى كل لحظة يريدون أن يموتوا . لماذا ؟ لأنهم عرفوا الملل . . لأنهم يجب أن يعرفوه ليتخلصوا منه . . لا بد أن « نضبط » الملل لكى نقضى عليه .

ولم أقل فى كتابى إننى أطلقت الملل كحمام زاجل ، يذهب ويعود . . وإنما كان الملل ناعماً كالحمام البرى . . أطلقه إلى الأبد . . أحرره منى وأتحرر منه أيضاً !

وكأنني بما كتبته أرد على ما قاله النقاد الذين نبهوني إلى شيء كان على طرف لساني !

وأنا لا أرحب بالملل . . وإنما أنا أحيي تقليداً فرعونياً قديماً : فقد كان أجدادنا يأتون بعروس النيل ويزينونها ويحملونها ثم يلقون بها في النيل بعد ذلك لتموت . . إنني زينت الملل وزففته إلى القبر ، وقد اخترت للملل أثواباً شابة لكي أدفنه بها .. منتهى الجمال الميت . . ومنتهى الموت الجميل . .

وأنا بهذا الكتاب أحاول — راجياً — أن أنهي أزمتي . . أن أنهي « تأزمي » . . وليس هذا التأزم إلا لحظة تنوير ، بعدها تنحل مشاكلي ومتاعبي مع نفسي . .

وقد تعبت من معاناة نفسي . . ومن معاندتها أيضاً . تعبت من هذه « النرجسية » الفلسفية . . تعبت من التطلع إلى صوري في الماء والهواء وفي داخلي . . تعبت من العناد الآلي . . من السير في طريق بلا نهاية ، أو من الدوخة التي عاناها الفتى « سيزيف » كما تصوره أساطير اليونان . . فقد كان يرفع حجراً إلى قمة جبل ، ويسقط الحجر منه ، فيعود يرفعه ويرفعه إلى الأبد . . بلا نهاية . . بلا حل . . إلا العناد والتعالي الأعمى .

كان لا بد من أن أشعل في النهار عموداً من الدخان ، لكي أرى . . ولابد أن أشعل ناراً في الليل ، لكي أرى . .

وهذا الكتاب ، كان ناري في الليل ، ودخاني في النهار . . كما فعل النبي موسى وهو في الضلال والتيه .

ويهزني واقعنا الجديد .

وهو يسحب من فوقي غطاء من السحاب .. وهو يدفعني إلى نافذة ومن النافذة أربط أهدابي بشعاعات فجر صادق .. فجر يوليو وكل يوليو ..

إن هذه الهزات تحركني ، كما تتحرك الساعات السويسرية بالاهتزاز . . إن هذه الهزات تملأ تروسي ، وتشيع فيها نبض الزمن .

وكأنني « توربين » . . كأن هذا الواقع الجديد فيضانات تنهار من فوق أعلى السدود . . فتديرني وتنيرني . . وتصلح المعاني البور في أعماقي . . وتحقق العدالة بين قدراتي . . وترفع يدي فأعانق حاضري ، وأصافح واقعي ، وأصالح نفسي على الناس وعلى نفسي . . وأتخلص من النظر الدائم إلى داخلي ، ومن التطلع الأبدي إلى الوراء . .

فالنظر إلى الوراء له طعم الملح ، كما يقول الإغريق . .

لقد عانيت كثيراً . وجلست من نفسي مجلس القاضي والمتهم . مع أنني أنا الذي اخترت القاضي ، اخترت له المحكمة ، واخترت له حيثيات الحكم والحكم والعقوبة . . وتحيرت بين القاضي الذي هو أنا والمتهم الذي هو القاضي . تحيرت بين محاكمة من تأليفي وإخراجي وسخريتي وبين براءتي التي لا تحتاج إلى محاكمة !

وهذه المعاناة هي التي أنبتت الأزمة . .

ومعاناة الأزمة هي التي رفعتها إلى مستوى التأزم ، الذي هو بداية التنوير . . تماما كما يضيء الفحم الأسود من شدة الاحتراق . . !

وما كتابي هذا إلا لحظة تنوير ، أرجو أن تكون لحظة تنوير . . وقد أشارت سطور على الغلاف إلى هذا الخلاص ، وإلى الرغبة فيه . . إلى إنهاء التمرغ الطويل في الشاطىء الرملي ، الناعم الملمس واللانهائي والذي أسميه الملل وطعمه القرف . والذي هو الحزام اللامبالي الذي يلتف حول أبناء المدن ، وأبناء الثقافة ، وشهود المراحل الانتقالية في التاريخ !

* * *

وكأنني « بوذا » الذي وقف في الصحراء هادئاً جامداً وقد أقفل عينيه وأدارهما إلى داخله . . إلى أعماقه . . وعندما يفقد الإنسان قدرته

على النّظر ، تنبت العيون والأجفان فى أصابعه . . وهذا ما حدث لبوذا ، فقد جاءت العناكب وعششت فى كفيه . . كعشرات العيون لأصابعه . . ولكن عند ما بكى بوذا وتألقت الدموع على خديه . . طارت العناكب ونبتت الزهور . فمن قطرات التنوير ، وبسبب هذا التنوير على وجنتيه . . نبتت الزهور وتفتحت . . من كل لون !

ولا أدعى أنى أنهيت مشكلة الملل ، وإنما حاولت فقط أن أنهيها أن أعمقها .. وأنا لم أكن أحرك فرشاة على لوحة ، وإنما كنت مصلوباً على هذه الفرشاة . . وما ألوان اللوحة إلا دمى . . وما هذه الفرشاة إلا حقنة تنقل دمى إلى الورق . . لقد كنت أقوم بعملية « بذل » . . بعملية نقل دم وحياة ونبض . .

إنى فقط حاولت أن « أكثف » هواء فاسداً لكى ألمسه ، وحاولت أن ألونه كالفلورسنت لكى يراه الناس . .

كأنى أدميت يدى لأرى جرحى .

كأنى أشعلت النار فى أصابعى لكى أراها وأرى بها . .

إنى أتيت برمال الملل وغسلتها لكى أتذوقها ، ولونتها لكى تقع عليها عيون الناس . وجمعتها فى كيس ناعم ، فى كتاب . . ثم عصفت بها ، لكى يعصف بها غيرى من الذين يعيشون فى المدن من المثقفين ، من الذين يمارسون الانتقال التاريخى العظيم . .

فلا تزال العواصف ، هى الشىء الوحيد النظيف الذى تبقى للإنسان !

الثائر والثورة والوحدة . .

الذي يحدث في بلادنا اليوم وغداً : هو تغيير تدريجي منظم في المجتمع العربي الذي نعيش فيه .

والهدف من وراء هذا التغيير : هو التوزيع العادل للثورة والتوزيع العادل للفرص المتاحة لكل الناس لكي يعملوا ويتقدموا .

وهذا التوزيع العادل معناه أن أحداً من الناس لا يستغل أحداً .

فالذي يستغلني هو الذي يتحكم في حياتي وفي أفكاري وفي أسلوبي في الحياة وفي التفكير . وهو يستغلني لأنني محتاج إلى أن أعمل عنده وإلى أن أعيش عن طريق العمل الذي يختاره هو ، والذي يفرضه علي . . وعملي هذا سلعة أبيعها له . . وهو وحده – أي الذي يستغلني – هو الذي يشتريها بالثمن الذي يراه . فهو الذي يختار الثمن . وهو الذي يدفعه . وهو الذي يدفعني إلى أن أنحني على الأرض ألتقط لقمتي ،وفي نفس الوقت أنحني له .

وأهم ما تقوم به الثورة هو تحرير الإنسان من استغلال الإنسان . . تحرير الإنسان من استعباد إنسان آخر . .

أو تحرير الأغلبية العاملة من استعباد الأقلية غير العاملة . .

استعباد أصحاب رؤوس الأموال للعمال . . استعباد أصحاب الأراضي الواسعة للفلاحين .

فالثورة أخذت للعمال ما يستحقونه من رؤوس الأموال .

وأخذت للفلاحين ما يستحقونه من رجال الإقطاع . .

وبذلك اقتربت الطبقات . .

وبذلك اعتدل ميزان المجتمع . لم تعد الفوارق مخيفة . . ولم تعد قمة المجتمع ضيقة تتسع لأقلية عاطلة باطلة من الناس الذين لا يعملون لأنهم يملكون . . والذين يتحكمون لأنهم يملكون . والذين يتحالفون مع كل القوى الاستعمارية فى الغرب ، لأن لهم مصالح واحدة . .

فالقوى الاستعمارية هى قوى رأسمالية . .

والرأسماليون فى كل بلد أحلاف الدول الرأسمالية . لأنهم جميعاً أصحاب مصالح واحدة .

ورأس المال لا دين له ولا وطن . .

ولذلك من الممكن أن يتحالف الأمريكى والروسى . إذا كان هناك رأسمالى روسى . . ومن الممكن أن يتحالف الرأسمالى العربى واليهودى . . لأن الذى يجمع بين الاثنين هو المصلحة الواحدة . . أى الاستغلال للآخرين . .

وقبل قيام ثورتنا كان هناك أفراد وطنيون . .

وكانت هناك حركات وطنية أيضاً . . ولكن هذه الحركات الوطنية لم تكن ناضجة . . لأنها لم تكن تمثل الجماهير . . ولم تكن تنشد الصالح العام للجماهير .

ولأنه كان من الصعب أن ينفرد شخص وطنى واحد بتغيير المجتمع كله دون أن يستعد المجتمع كله لذلك .

والحركات الوطنية التى كانت فى مصر قبل الثورة قام بها أفراد . . ولكن هدف هؤلاء الأفراد هو خوفهم على مزايا الطبقة الغنية التى ينتسبون إليها . . خوفهم على مزايا الرأسمالية أو مزايا الإقطاع . . فهى حركة ضد المستعمر الإنجليزى . . ولكن فى نفس الوقت حركة خادعة . . فهى تهوش المستعمر أمام الرأى العام وتصافحه من الخلف وتستبقيه أيضاً . .

ولذلك كان لا بد من قيام حركة شاملة . .

ولا يمكن أن تكون أية حركة شاملة إلا إذا استهدفت صالح الجماهير صالح الشعب كله .

ولا يمكن أن تنجح حركة ما لم يكن لها برنامج . . ما لم تكن لها خطة عمل . وما لم تكن لها إرادة على تنفيذ هذه الخطة . . وما لم تكن لها ضمانات لصيانة هذه الخطة وتعديلها وإقناع الناس بها . .

ولذلك فثورة يوليو المجيدة نبعت من سخط الناس على فساد الملكية . . ومن غضب الناس على فساد الأحزاب السياسية التى لا ترعى إلا مصالح طبقة معينة من الناس . . طبقة تستغل الأغلبية استغلالا حيوانياً شائناً . .

وقامت ثورتنا للناس وبهم . . للدفاع عنهم . ولتحريرهم . .

فهى تحرر الناس . . وهى فى نفس الوقت تتحرر بهم . . وتتحرك بهم . . وتنفذ مخططاً بإرادتهم . .

فما الذى فعلته الثورة . . ؟

إنها حررت الشعب من ظلم الإقطاع . . ومن استغلال رأس المال . .

وحولت الناس جميعاً إلى ثوار . . أى إلى مواطنين راغبين فى التغيير ، وحريصين عليه بالعمل والفكر . . فكل شىء يمكن تغييره . . فالفقير ليس من الضرورى أن يكون فقيراً إلى الأبد. والغنى ليس من الضرورى أن يكون غنياً إلى الأبد . .

فالفقر ليس قضاء وقدراً . .

والغنى ليس صفة يتوارثها أى إنسان من أى إنسان . .

ولا أن تكون محكوماً هذا أمر وراثى . .

ولا أن تكون حاكماً هذا أمر وراثى . .

وإنما التغيير هو شريعة المجتمع . . التغيير إلى الأحسن ومن أجل أكثر عدد من الناس . .

وكل الناس عمال . . لأن العمل هو الطريق الوحيد إلى الحياة . . . .
والوسيلة الوحيدة إلى تحقيق خير الناس كلهم . .

ونحن نضع عيوننا دائماً على المستقبل . .

فالعصر الذهبي أمامنا . .

حيث العدالة شاملة . . والخير يعم كل الناس ، والسلام . .

* * *

ولأن الثورة تنبع من قلوب العاملين المظلومين . .

فالذين سيرفعون الظلم عن أنفسهم هم العمال . . أى هم الذين عانوا الظلم فى الدرجة الأولى . .

وهم سيرفعون هذا الظلم بالعمل .. أى بصورة عملية منظمة .. وليس بالأمانى والأحلام والأوهام . . فهم قد شبعوا من الأمانى وداخوا من الأحلام . وتوارثوا الأوهام . .

* * *

وهناك فارق كبير جداً بين الإنسان الثائر وبين الإنسان الثورى

فمن السخط والشعور بالاضطهاد من الممكن أن يكون الإنسان ثائراً .

والزنوج فى أمريكا ثائرون لأنهم أقلية مضطهدة . ولكن هذه الأقلية لا تريد تغيير أوضاع المجتمع الأمريكى كله . وإنما فقط يطلبون المساواة بالبيض . . لأن لهم مصالح مع البيض . ولأنهم يتمتعون بنفس مزايا البيض فى العمل والتفكير والحياة .

فهؤلاء ثائرون فقط ولكنهم ليسوا « ثوريين » . . لأن الثائر فقط يريد « تعديل » وضع . .

أما الثورى فهو يريد تغيير الأوضاع كلها تغييراً جذرياً . .

والثورة هى التى تحول الثوار إلى ثوريين . .

تحول الحالمين الواهمين إلى عمليين واقعيين . .

وعن طريق العمل الثورى يصبح للثورة برنامج . .

وعن طريق تنسيق هذا البرنامج تقوى سواعد الثوريين ، وتزداد ثقتهم بأنفسهم . . وتصبح لهم مثل عليا .

فهم يريدون أن يحققوا حلمهم الكبير فى تحقيق العدالة الشاملة لكل المواطنين . . .

وهم فى نفس الوقت يضربون المثل الأعلى لغيرهم من الشعوب الأخرى التى تحتاج إلى تغيير . . ولكى تنجح فى التغيير لا بد لها من مثل أعلى . من نموذج عملى ناجح . .

وثورتنا المجيدة هى نموذج . . وهى فى نفس الوقت طليعة رائدة . وهى بإصرارها وصدقها وإيمان شعبها وعدالتها . هى نموذج لكل شعب عربى . .

وثورتنا لم تكتف بأن تكون النموذج السليم الذى ترسمه الشعوب الشقيقة لم تكتف بأن تكون صورة جميلة يتطلع إليها الثوار فى كل بلد عربى وإنما اتخذت موقفاً إيجابياً . . فمدت يدها لكل الشعوب الشقيقة مدتها بلا قيد ولا شرط . . وبلا مقابل . .

فالهدف العربى واحد . .

وهو طرد الاستعمار وطرد أعوانه فى كل بلد . .

وهو فى نفس الوقت ضم الشمل العربى أمام غاية واحدة . .

ولا تزال الوحدة العربية فى خطواتها الأولى . .

وإذا كانت خطوات الوحدة قد تعثرت بعض الوقت . فالشعوب لا تتعثر . . وإنما الحكومات الضعيفة هى التى تتعثر . . وحرص الحكام الرجعيين على أن ينفردوا بالسلطة . .

إنها أنانية الحكام الأفراد . . هى التى تحول دون الشعوب ودون تحقيق أهدافها البعيدة . .

وكل خطوة ضد الشعوب . هى قفزة فى الهواء . .

هى ضربة طائشة . . هى رمية إلى غير هدف . .

ولا بد أن تختار الشعوب طريقها . .

وطريق الشعوب معروف وهو أن تحقيق العدالة بالعمل . . وأن تحقيقها بأيديها . . وأيدى رجالها الذين يمثلونها . .

ولا بد أن تتحقق إرادة الشعوب . .

وكل يوم يتحرر شعب . . وكل يوم ينسحب رجل أبيض من أرض كانت محتلة ، وكان أهلها مضطهدين جائعين .

وتحتفل العراق بثورتها الاشتراكية . .

وتحتفل بثورتنا الكبرى

ويحتفل اليمن الشقيق بثورته الشعبية . .

وتحتفل كل الشعوب الأفريقية التى استقلت . . التى تخلصت من سيادة اللون الأبيض . . والتى استردت أرضها وكرامتها . . ومارست حقها فى الحياة الشريفة !

إن الكثيرين من الشبان لا يعرفون كيف كانت بلادنا قبل جمال عبد الناصر . .

ولا كيف كان الشرق العربى قبل ثورتنا . .

ولا كيف كانت إفريقيا قبل أن تصبح قاعدة للنضال . وخط دفاع أول للشعوب المتحررة . . والأمم الناهضة . والدول غير المنحازة .

إننا فى حاجة إلى أن نشير إلى كيف كنا ؟

وإلى أين نحن الآن . مما كنا عليه بالأمس !

إن الثورة لم تكن كنزاً مخبأ عثرنا عليه بالمصادفة !

إن الاشتراكية لم تكن « خطة » لحفائر بجوار الهرم . .

أبداً . . إن إرادة التغيير وخطة التغيير والإصرار على التغيير . . كل

ذلك لم يكن جاهزاً . لم يكن موجوداً فى اللحظة التى قامت فيها ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

فقد صنعت الثورة رجالها . . واختارت الأيدى التى تعمل على تنفيذها وعلى استمرارها . .

والاشتراكية لم تكن « وصفة » طبية جاهزة . .

وإنما الاشتراكية قد طبقتها الثورة وبالتدريج فقرة . . فقرة . . وبلا عنف وبلا دماء . .

فجاءت متفقة مع طبيعة شعبنا المحب للسلام . .

ولم يكن تحقيق الاشتراكية سهلا . . فقد واجهتنا صعوبات كثيرة فى الداخل . . فالأوضاع ،وقد ظلت هناك جيوب للمقاومة القديمة ، لم تتغير بسهولة . . كان لا بد من إزالتها حماية لمكاسب الشعب . . واستمرارا للثورة نفسها . .

وواجهتنا صعوبات من الخارج . .

قاطعتنا الدول الاستعمارية . . وحاصرتنا وضيقت علينا الخناق . وحرصت على تدعيم قاعدتها إسرائيل . . ثم أشاعت الفرقة فى الصف العربى . . ووجدت لها أذناباً فى كل مكان . . وأطلقت علينا محطات الإذاعة الاستعمارية تشكك فى نياتنا . وتوهن من عزيمتنا . .

ثم اعتدت على أرضنا بعد أن أممنا قناة السويس . .

وارتدت الدول المعتدية . . وكان لا بد أن ترتد عند ما تصطدم بإرادة الشعوب فى مصر وفى العالم كله . . فلم يكن العدوان على بور سعيد عدوانا علينا وحدنا . وإنما هو عدوان على حقوق الشعوب فى أن تستقل . . فى أن تسترد أملاكها المسلوبة .

ولم يكن من المعقول أن يسكت العالم كله على عبث مجانين يريدون أن يشعلوا حرباً عالمية .



سيدة إيطالية — للفنان كورور



الفتاة الصغيرة -- للفنان فروتزى -- المتحف الحديث بفينيسيا ، البندقية

وكان العدوان اختباراً لإرادتنا . . ونجحنا . . وازددنا صلابة . ومضينا على الطريق نضمد جراحنا ونجفف عرقنا ونستأنف السير لتحقيق المخطط الاجتماعي . والسياسي والاقتصادي لثورتنا . . خطة وراء خطة . .

ولم يكن غريباً أن تتحقق الوحدة بين مصر وسوريا . . وكانت نموذجاً عالياً لإرادة الشعوب . .

ولا بد أن تتحقق الوحدة العربية الشاملة.. ولا بد أن يتحد أصحاب المصالح الواحدة فى مواجهة العدو المشترك . .

وحدثت نكسة الانفصال . . وهى نكسة . . ولكن التاريخ لا يعرف النكسة . . وإذا عرفها فهى عثرة فى طريق . . وليس توقفاً عن السير . . ولا يمكن أن تكون هذه هى نهاية الطريق . .

فلا بد أن تعاود الشعوب وحدتها . .

هذا هو منطق التاريخ . . ولا مفر من حتمية وحدة النضال . . لا مفر من وحدة كل القوى العاملة فى كل بلد وفى العالم العربى . . فهذه الوحدة هى الدرع المتينة لصيانة أصحاب المصالح الحقيقية .. وحدة القوى المحركة للتاريخ . . صانعة التاريخ . .

وقد اتحدت مصر والعراق . .

واتحدت مصر واليمن . .

وغداً تتحد مصر والجزائر . .

وبعد غد تمتد عبر الحدود الأيدى وتتصافح وتتعانق . .

ولا بد ، بعد وحدة الهدف أن تجىء وحدة الصف العربى .

وحدة الصف الأفريقى الأسيوى . .

إن هذه ليست أحلاماً . . ولكنها حقائق . .

فالشعوب كلها تحلم وهى مفتوحة العينين . . وأحلامها صادقة . . فالشعوب هي وحدها القادرة على صنع المعجزات . . وقد صنعت المعجزات

والذى كنا نراه معجزة . . أصبح اليوم حقيقة بسيطة . . تتلوها حقائق أغرب . . ولكن عند ما نبلغها سنتجاوزها ونراها بسيطة . . تماماً كما تجاوزنا الحنطور بالسيارة . . وكان الحنطور معجزة .. وكما تجاوزنا السيارة بالطائرة . . وكانت السيارة معجزة . . وكما طردنا الملك وكان خرافة وكما أممنا قناة السويس وكان ذلك معجزة . . وكما بنينا السد العالى وكان وهماً جنونياً . .

وغداً وبعد غد لا نهاية لما نحققه بأيدينا فى أرضنا . . لنا وللأجيال من بعدنا . .

ويجب أن نكرر هذه المعانى لهذا الجيل الذى وجد المجتمع الاشتراكى جاهزاً . . وجد مائدة ممدودة . . ووجد طعاماً وضوءاً وكتاباً وحرية وكرامة ومستقبلا لكل متعلم ولكل عامل . . ووجدنا طريقاً مفتوحاً إلى غير حدود . .

يجب أن نؤكد دائماً . . أننا لم نكن كذلك . .

وأننا حققنا هذا بالتعب والعرق . .

وأن التعب الذى صنع الراحة لهذه الأجيال ، لا يمكن أن تصان هذه الراحة إلا بالتعب أيضاً . . فنحن نحصل على الراحة بالتعب . . ونصون الراحة بالتعب فنحن حققنا الثورة بالعمل الثورى . .

ونصونها بالعمل الثورى أيضاً . .

ولذلك يجب أن نعمل فى كل وقت ، وعلى كل المستويات . والذى لا يعمل لا يعيش . . والذى لا يعمل أكثر لا يعيش أفضل . . والشعوب التى تريد أن تعيش أفضل يجب أن تعمل أكثر وأكثر . . أى يجب أن تحتفظ بثورتها . .

فلا يكفى أن نكون ثواراً لتبقى ثورتنا . .

وإنما يجب أن نكون ثوريين !

تلك الليلة فى عنتيبة !

كانت الطائرة تقف على أرض حمراء ووراءها غابات خضراء الأوراق : زرقاء السيقان . وفوقها سماء صافية ولكنها ليست مغسولة .. كأنها سقف بيت لم يتم بياضه .. وكأن هذه الطائرة مسروقة .. فالناس الواقفون حولها يتفرجون عليها . . وفى أيديهم رماح و بنادق .. ولا يريدون أن يقتربوا منها حتى يجيء أصحابها . . ثم إن الطائرة لم تمش عليها فرشاة لون . . وحتى السلالم التى بينها وبين الأرض .، كأنها هى الأخرى قد صنعوها بسرعة . . أو سرقوها من فوق أحد الأسطح . . أما الطائرة من الداخل فهى أعجوبة . . وقد ركبت هذه الأعجوبة من القاهرة إلى الخرطوم إلى الكونغو . . والمفروض فى هذا اليوم أن أقطع الطريق بالعكس .

صعدت السلم . . وهذه العبارة من الناحية اللغوية سليمة . ولكن من الناحية الواقعية أو الوجودية ليست سليمة . فأنا لم أصعد السلم . . وإنما صعدت اليه . . فنى الطريق إلى السلم مسافة طويلة . . ثم السلم نفسه مشكلة . فأنا محتاج إلى من يرفسنى من الخلف لكى أندفع دون تفكير . لأن ركوب هذه الطائرة التابعة للأمم المتحدة يحتاج إلى تفكير . فلا تزال جميع عظامى تتوجع منها . من مجرد ملامستها . من مجرد أن أجلس فيها وأتحول إلى كوم من القماش . فى أعلاه وجه مرسوم عليه رعب مخلوط باستسلام شديد . وفيه نسبة ضئيلة جداً من الأمل . وهو نوع من الأمل الوقح . أى الذى لا مبرر له . .

وإلى جوار حقيبتى جلست وتساندت عليها . وحاولت أن أضعها

وراء ظهري فلم أستطع ، فالطائرة لا يوجد بها مقعد واحد . ولا توجد بها قطعة خشبية . فوجهها كظهرها . وخارجها كباطنها ! حديد في حديد . ولا يوجد بها كوب ماء ولا كوب شاي ولا إنسان . . ولا توجد بها مصابيح حمراء تعلن أنه ممنوع التدخين . أو ممنوع التحرك ، ولا مصباح أخضر يقول لنا إننا في استطاعتنا أن نتحرك أو أن ندخن ، وأن نشم نفسنا . وكأن من الصعب أن نفكر في هذا الاحتقار الشديد الذي يعامل به ركاب هذه الطائرة الدولية . ولكن عند ما أطلت النظر في داخل الطائرة شعرت أن وجود مصابيح خضراء وحمراء لا معنى له . . لأنه لا يهم أبداً أن أتحرك أو لا أتحرك . أدخن أو لا أدخن ، لأنني لا أستطيع أن أخرج يدي من جيبي وأن أمسك أي شيء . . فالطائرة باردة جداً . . كلها حديد بارد . . حتى الهواء بارد كالحديد . وهو عند ما يدخل الأنف كأنه أسلاك مدببة . . كأنه حقن . . كأنه يرتاد الرئتين تمهيداً لإصابتي بالمرض المناسب . في هذه الطائرة وعلى ارتفاع عشرين ألف قدم فوق المنطقة الاستوائية .

ولكي أكون صادقاً . كان في الطائرة جندي عجوز ، يلبس القميص على اللحم ولا أعرف بالضبط . وإن كنت أتمنى . ما الذي يشربه . ولماذا لا يقدم لي أنا وزملائي ولو كوباً واحداً من ماء ساخن . . إنهم هكذا يفعلون في الصين واليابان ولم يفعل الرجل ولم أستطع أن أفتح فمي . فأنا في حاجة إلى إرادة . وإرادتي ماتت في جلدها . أو في جلدي أنا . ولذلك أطبقت فمي على عجزي وابتلعته ونظرت من النافذة فلم أجد إلا غابات الكونغو وفيها نقط بيضاء هي أكشاك أهلها الثائرين . .

وتشجعت وتقدمت إلى الطيار الأمريكي أسأله أين نحن الآن . . وإلى أين نحن ذاهبون . . ؟ وأشار الطيار الأمريكي وهو في غرفته الدافئة جداً . والشمس تدخل من زجاج الطائرة . فتعكس الصحة والشباب

والمرح على وجهه وقال : إننا الآن فوق بحيرة فكتوريا . . إنها زرقاء عميقة في لون السماء . والجبال تنحدر إليها بعصبية . وبعد لحظات شعرت أنني أخذت من كرم هذا الأمريكي أكثر مما يجب واستأذنت لكي أعود إلى الجراج وإلى جوار حقيبتي جلست بعد أن تبدد الدفء وعاودني الزمهرير ولممت نفسي وتكورت وتجمدت وحشرت رأسي في البالطو . هكذا بدون تفكير تماماً كما يفعل الكثير من الحيوانات عندنا . وهذا يؤكد أن الإنسان أصله حيوان !

وبدون أي إنذار أخذت الطائرة تهبط . . وبعد أن لامست الأرض وجدنا أننا في منطقة « هو » بكسر الهاء وتسكين الواو . . وكان المطار كسراً في الجبل وكان الجو دافئاً ساكناً . ولم يفتح الطيارون الأمريكان أفواههم بكلمة واحدة وإنما أخذ كل واحد منهم بطانيته الكاوتش ونفخها ثم تسلل إلى داخلها وهات يا نوم .

ونزلت من الطائرة واستقبلني أبناء هذه المدينة التي لا أعرف اسمها . . الملابس الصفراء . والطربوش الأحمر الفاتح والزر الذي يتدلى من الأمام . وكانوا حفاة الأقدام . ومن أسنانهم التي تكشف عن ابتسامة . وعيونهم الأكثر لمعاناً . حاولت أن أجد تفسيراً لهذه اللامبالاة . أو هذا البرود الذي سبقني فأجتاح هذه المسافة التي بيني وبين هؤلاء الجرسونات . واكتشفت أنني لم أكد ألمس أرضهم المقدسة حتى انتهزت هذه الفرصة ووجهت إليهم إهانة بالغة . عندما بادرت واحداً منهم وسألته : قل لي يا أخ نحن الآن في كينيا ؟

وكتم الأخ ضحكة غير أخوية بالمرة . وربما كان كتمانها هو الشيء الوحيد الأخوي . ويبدو أن الكتمان أحد الأمراض المعدية في هذه المنطقة من إفريقيا . لقد كتم بقية الجرسونات ضحكاتهم أيضاً . ولكن مع ذلك لم أفهم غلطتي . بل إنني حاولت أن أكابر وكان بودي أن أستعرض

معلوماتى الجغرافية وأقول لهم إن هذه ليست المرة الأولى التى أعبر فيها خط الاستواء فقد عبرته بين آسيا وأستراليا وأمريكا عدة مرات . . وحاولت أن أحتمى فى بشرتى البيضاء . ولكن يظهر أن بياضى لا يرتفع إلى مستوى الأوربيين الذين يعيشون فى هذه المنطقة وأنا بالفعل لا أعرف أين هبطت هذه الورشة الكبيرة . فهذه هى المرة الأولى التى أسافر فيها إلى أواسط أفريقيا . ثم إن الطيارين الأمريكان لم يفتح الله عليهم بكلمة واحدة ربما لأننى لم أسألهم . . وربما لأن هذه المناطق معروفة لهم . . أو حتى إذ لم تكن معروفة . فالطيار يعرف على الأقل . أين هبط . ولا بد أن تكون هناك اتصالات بينه وبين المطار . وربما أنهم تصوروا أننى أعرف هذه المناطق جيداً .. ألست أحد أبناء إفريقيا .

وفى كبرياء مجروحة . وفى وضع يمكن تسميته : بحسنة وأنا سيدك طلبت منه براداً من الشاى. وكان فى نيتى أن أؤكد له أن يكون الشاى من النوع الإنجليزى الطويل . لولا أننى أمسكت لسانى الذى جف من البرد والعطش .. فقد خشيت أن أخطئ فى حق الإنجليز الذين يستعمرون هذه المنطقة وكل المناطق التى حولها .

وأخيراً تطوع أحد الجرسونات بتصحيح معلوماتى التاريخية والجغرافية وقال وهو يمصمص شفتيه ويعبئ حنجرته : هذه هى أوغندة يا سيد !

ولا أستطيع أن أصور لك كيف نطق كلمة يا سيد . . إنها مرادفة لألفاظ شعبية عندنا كثيرة من بينها على سبيل المثال : ياسى نيلة . . أو يا خيبة . !

إذن هذه هى الجنة التى تحدث عنها تشرشل . وطلب من الإنجليز أن يموتوا فيها . ويكفى الإنسانية كلها أن واحداً قد ترك الجنة . وهو يشير طبعاً إلى أبينا آدم عليه السلام . أو يشير إلى كثير من الآدميين البيض الذين يحزمون حقائبهم فى كل مكان من إفريقيا الآن . وتشرشل

فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٠٨ بعنوان « رحلة إلى إفريقيا » راح يتغنى بجمال وهدوء هذه البلاد التى خلت من ذباب تسى تسى والتى تزرع القطن والبن . وفى هذا الكتاب اقترح تشرشل إنشاء سد على البحيرة يحجز المياه الهابطة وتتولد منه القوى الكهربية . وقد نفذت فكرته بعد ذلك بأربعين عاماً .

هذه هى أوغندة ومساحتها كمساحة ألمانيا الغربية . لغتها اسمها : لوغندة ، وسكانها الخمسة ملايين اسمهم بوغندو وهى بلاد أحسن أنواع التماسيح وأضخم أنواع السيد قشطة . وهذه الحيوانات تملأ بحيرة فكتوريا التى يبعد عنها هذا المطار بضعة أميال . ومن هذه البحيرة ينبع نهر النيل الذى يصب فى البحر المتوسط بعد رحلة طولها أربعة آلاف ميل . ومن هذه البحيرة يقال إن ميكروبات البلهارسيا تنتقل إلينا .

وعلى غير ما تتوقع استقبلنا الإنجليز فى مطار مدينة عنتيبة استقبالا أخجلنا فقد كانوا فى غاية الدهشة والرقة أيضاً . . فقد اندهشوا لأنهم فوجئوا بوجودنا . . ووجودنا كمصريين مفاجأة لهم . فقد أرسلنا قواتنا إلى الكونغو . وعبرت الطائرات سماء المستعمرات البريطانية وهبطت تحمى ثورة لومومبا . وتلقى أبناء المستعمرات هذه الأنباء بصورة مزعجة . . . مزعجة للانجليز طبعاً . ويبدو أن الطيارين الأمريكان لم يخبروا المطار بأن معهم صحفيين مصريين قادمين من الكونغو . فى طريقهم إلى القاهرة . وتقدم أحد الإنجليز وتطوع أن يصحبنا إلى أى مكان فى المدينة التى ترتفع عن سطح البحر خمسة آلاف قدم . فاكتسبت بذلك نفس الهدوء الموجود فى مدينة برن بسويسرة ونفس البرودة الموجودة فى مدينة نوريليا بجزيرة سيلان . . واتجهنا إلى المدينة ووقفنا عند أحد محلات البقالة . . وكان صاحب المحل هندياً . . والتف حولنا المواطنون يسألون عن مصر . وعن الأخبار التى نشرتها الصحف فى مصر . واندهشنا لأنهم

يتابعون هذه الأخبار . ويعرفون أسماء الصحف . . ويبدو أنهم كانوا متحفظين معنا . فقد لمحوا الرجل الإنجليزى الذى تطوع لخدمتنا وحمل حقائبنا وحرص على إقفالها كلما أهملنا فى إقفالها . . ثم نقلنا أيضاً إلى أحد الفنادق . إنه الفندق الذى رفض أن يسمح للدكتور رالف بانش أن يدخله لأن هذا الفندق مخصص للبيض فقط !

وظل الرجل مرافقاً لنا حتى دخلنا الفندق وعند ما بدأنا نناقش فى أسعار الغرف تخلى عنا . ولم تكن معنا عملات هذه البلاد أو أية بلاد أخرى . والفندق كأنه منقول منذ ساعات من أحد المدن الإنجليزية ؛ فكل شىء فيه هادئ والناس يتهامسون . حركاتهم منشاة مثل ياقاتهم البيضاء وملابسهم السوداء رغم الدفء الواضح . . فهم يريدون أن يكونوا على صلة ببلادهم باستمرار فهم يرتدون نفس الملابس ويتناولون الأطعمة ويتطوعون للعناية بنا حتى لا نتصل بأهل أوغندة !

ولم ألحظ وجود سيدة واحدة . . حتى التى وجدتها عند الباب سألتنى من أى بلد أنت ؟ فقلت لها وأنا أقرأ ملامحها المألوفة : من مصر ، وأنت ؟ قالت نحن جيران . . وسألتها : وماذا تفعلين هنا ؟ أجابت والمعنى يبدو واضحاً من وضع يدها فى خصرها ورفعة رأسها إلى أعلى : إننى صاحبة هذا الفندق . .

وأعطتنى كتاباً انيقاً . . .

وقبل أن أثنى على عبقريتها تمهيداً للسؤال التالى : تقولين أنت جارة لنا ؟

فأجابت وهى تنظر ناحيتى بارتياب متجهة إلى الشارع فى نفس اللحظة التى سحبنى فيها أحد الزملاء : من إسرائيل !

وكانت بدينة منكوشة الشعر فتذكرت القصة التى كتبها سومرست موم

بعنوان (نساء مدينة عنتيبة) . . فوصف نساء هذه المدينة بأنهم ثلاثة أنواع : الأرامل والمطلقات لثالث مرة والعوانس . . وأنهن جميعاً على استعداد دائم لامتصاص دم أي إنسان غريب !

وقبل أن أرفض الكتاب الذى أعطنى إياه هذه السيدة . وأراجع معلومات سومرست موم عن نساء عنتيبة وأثبت جهله التشريحى والسيكولوجى ولو مرة واحدة ، تقدم الرجل الإنجليزى وقال لى : عندنا فى هذه المنطقة من المتاعب ما يكفينا ولسنا فى حاجة إلى متاعب تصدرها لنا القاهرة !

وشعرت بأننى شىء متعب . وأننى بوجودى فى هذه المنطقة التى لا أعرفها والتى سقطت فيها لأول مرة ، أساوى قنبلة ذرية أو مليون منشور ثورى ضد الإنجليز . أو أنى رمز لشعب تحرر منهم . وينقل جرثومة التحرر فى اتجاه عكسى لماء النيل من القاهرة إلى عنتبة !

وبشىء من الخطورة التى أحسست بها ، حملت حقائبى واتجهت إلى المطار إلى الجراج الذى فى انتظارنا . . وفى نفس المكان تكرمشت واستسلمت من جديد إلى البرودة وبيدى اليسرى أخرجت الكتاب من جيبى . . وبيدى اليمنى رحت أقلب صفحاته — وفى تلك الساعات تمنيت لو كانت للطائرة نافذة مفتوحة لأرمى منها هذا الكتاب الذى يلعن الحركات القومية ، والفوضى التى نسميها الاستقلال ، والمراهقة التى نسميها الحكم الذاتى . والغرور الذى نسميه الكرامة ، وعمى الألوان ، الذى نسميه المساواة ! !

وبالأمس عدت إلى هذا الكتاب وقلبت فيه وتركته أمامى كأنه يد ممدودة الأصابع فى استعداد لأن تصفع الأقفية الحمراء التى تطوعت فى أدب لمرافقتنا من المطار إلى الفندق . كما تطوعت بنفس الأدب للاستيلاء على أوغندة وكينيا وتنجانيقا وعدن وغيرها . . وبنفس الأدب احتلت

بلادنا ثمانين عاماً . . أما مناسبة مد يدى وجعلها فى وضع الاستعداد لصفع هذا الرجل الأحمر . وهذه السيدة المصوصة الدماء والأنوثة . فلأن أبناء أوغندة وتنجانيقا وكينيا بدأوا ينزعون جلدهم الأسود . الذى تعلموا من عشرات السنين أنه محكوم عليهم بالسجن وراءه . . فهذا السواد ليس إلا قضباناً متراصة محكمة لسجن أبدى . . وأنه لاحرية لهم إلا إذا تبدل لونهم . .

ولن يبدلوا لونهم . . وإنما سيقلبون صفحة فقط من كتاب التاريخ . لقد استمعنا منذ سنوات إلى السطور الأولى منها . . عند ما التف الناس حولنا ، فى الليلة الوحيدة التى أمضيناها فى عنتيبة . . .

لا الكرة . . ولا الكابتن !

ليست الكرة بالذات هى التى تهمنى ولا صالح سليم . . فأنا لا أعرفه ولم أره كثيراً . . ولكن عرفت عنه الكثير . . وقرأت عنه الكثير . وناقشت لناس فيه . .

ولكن الكرة نموذج واضح جداً لما أريد أن أقول . وهى لأنها مهمة جداً لعدد كبير من الناس . فهى تهمنى . أو يجب أن تهمنى .

والكرة لعب على المكشوف . كل شىء فيها واضح أمام الناس . الخطأ واضح . والصواب واضح .

ولاعب الكرة مثل الممثل يتحرك أمام الناس . .

ولكنه يختلف عن الممثل ، لأن الممثل حركاته محدودة . وعباراته معروفة قبل أن يجىء إلى المسرح ، وبعد أن يجىء إلى المسرح ، ثم إن عبارات الممثل ليست من تأليفه وإنما من أدائه فقط . .

ولاعب الكرة يرتجل حركاته . وهو قبل أن يظهر فى الملعب لايعرف بالضبط ما الذى سيفعله . لا يعرف أين مكانه بالنسبة للشبكة . . هل سينفرد بها . وهو حريص على أن يفعل ذلك . هل سيكون نجم المباراة رغم أن هناك آخرين فى الملعب يريدون أن يكونوا نجوماً . . وهو يعلم مقدماً أنه لا يستطيع أن يكون وحده طول الوقت وإن كان هذا ممكناً بالنسبة للممثل .

ولاعب الكرة ليس كالكاتب أو الفنان . فالكاتب لايراه الناس وهو يمزق أوراقه . . وهو يشطب ويكتب . . ثم يغير عباراته . . ثم يغير فكرته . . وإنما يدون آخر هذه المحاولات على الورق . .

ولكن اللاعب والكاتب والممثل والمطرب . . يجب أن يكونوا فى حالة

لياقة بدنية وفنية وعقلية ، لكى تكون مريحة لهم وللناس . .

وليس النادى الأهلى هو وحده الذى يجب أن يكون موضع الاهتمام . . وإنما النادى الأهلى وما أصابه يجب أن يشغل كل النوادى الأخرى . . ويشغل كل الذين يهمهم الشباب . أو تهمهم القيم الرياضية والأخلاقية والأدبية والفنية فى هذا البلد . .

فما الذى حدث ؟ وكيف حدث ؟ وكيف لا يتكرر فى الكرة وفى غيرها من الألعاب والاهتمامات الأخرى ؟

هذا بالنسبة لصالح سليم — على سبيل المثال فقط — إنه يجب أن يترك اللعبة لأنه أصبح أكبر منها . لم يعد يحترمها . وأنه الآن يلعب بماضيه . وأنه عندما ينزل الملعب ، فهو يطلب من الجمهور الشفقة وليس الإعجاب وأن صالح سليم هو أحد اثنين يجريان إلى جوار الكرة ولا يلمسانها : هو والحكم . . وأنه فى نشوة العناد والغرور لا يدرى بأحد ولا يهمه أحد . . وأن كل اللاعبين قد جاءوا إلى الملعب بالانتخاب أما هو فبالتعيين . وأن وجوده فى الملعب كأى ملك قد ورث هذا العرش . . أما بقية اللاعبين فوجودهم جمهورى بالانتخاب المباشر المتجدد . . إلى آخر ما يقال عنه وعن أمثاله من اللاعبين الذين كانوا شيئاً ، ولم يصبحوا شيئاً . . وربما أدت هذه الحالة النفسية الفظيعة التى تصيب لاعباً مثل صالح سليم إلى أن ينهار ، وإلى أن يبحث عن طريقة للنسيان . . طريقة يبتلع بها فشله . وينسى بها عيون الناس . . وينسى بها أنه كان يوماً من الأيام سيد الملعب وحلم كل شاب ، وأمل كل فتاة ورمز الفن الكرة . . ومحاولة النسيان هذه تعيده إلى السهر والليالى الحمراء لينسى أنه كان لاعباً . . ومع ذلك لاينسى فهو يعاود اللعب بلا لياقة جسمية أو نفسية . . فيجىء أسلوبه فى اللعب ركيكاً ، وتجىء طريقته فى الأداء ناقصة فلا هو لاعب ولا هو كاتب ولا هو ممثل وإنما هو أحد المتفرجين أخطأ طريقه إلى المدرجات فتوقف

بين اللاعبين يوهمهم بأنه حكم . ويوهم الحكم بأنه لاعب . . ويوهم المتفرجين بأنه صالح سليم !

والمتفرجون لا يسألون كم أمضى اللاعبون من الساعات فى الاستعداد لهذه المباراة ؟ كم ساعة ناموا ؟ كم ساعة تمددوا على الأرض ؟ أبداً . . إنهم فقط يريدون أن يستمتعوا . . أن يروا الاستعراضات الممتعة ، أن يروا الأهداف الفنية . . وليس من الضرورى أن يعرف الناس كم تعبنا . ولكن من الضرورى لنا أن نتعب . فهذه هى أصول الصنعة . . صنعة الكتابة وصنعة التمثيل وصنعة اللعب . فاللعب أيضاً صنعة . ولكننا لم نعرف بعد أنه صنعة .

واللعب صناعة يفسرها النقاد الرياضيون . .

وفى استطاعتك أن تقوم بتجربة بسيطة : هى أن تقرأ ما تنشره الصحف فى يوم واحد عن مباراة واحدة لأحد الأندية المشهورة . .

لا يمكن أن يكون هذا « نقداً » بمعنى كلمة نقد . .

وإنما هذه مظاهرة صاخبة يستخدم فيها النقاد النبابيت والطوب ويحطمون الكلوبات ويخرجون ألسنتهم لماذا ؟ ولمن ؟ ومن الذى يستفيد ؟ ومن الذى يريدون إغاظته ؟

والذى أعرفه هو أن النقد له قواعد وله أصول . .

النقد الأدبى له قواعد . يدرسونها فى الكليات والمعاهد . والنقد الفنى والموسيقى . . كلها علوم لها أصول . . وأعتقد أن النقد الرياضى يجب أن يكون كذلك . فالذى يقول مثلا : الكرة فى رجل فلان . . طالت . . أخذها فلان . يا سلام . . دخلت . . طلعت . . رجعت . . عال يا واد . . يا سلام . . إلى آخر هذه العبارات أو الهتافات فى مقال من المقالات ، لا يمكن أن يكون هذا نقداً رياضياً .

وقد قرأت فى الأيام الأخيرة أن أحد النقاد وصف لاعباً صغيراً هزيلا

بأنه دى ستفانو — والسبب الذى أدى به إلى خلع هذا اللقب على اللاعب ، هو أنه أصاب هدفاً . . ويدهشك هذا اللقب لهذا اللاعب . الذى أتى بأهداف كثيرة قبل ذلك . فليس هو أول من أصاب ولا آخر من يصيب . . ولكن هذا الحماس أفقد الناقد توازنه وجعله يطير من مقاعد الناس المتزنين إلى صفوف الناس الذين يتابعون المباراة بضرب جيرانهم باليد والرجل واللسان . . من شدة الحماس طبعاً !

أين النقد هنا ؟ أين القواعد هنا ؟ أين الأصول هنا ؟ كيف يمكن أن يلعب مثل هذا الشاب بعد أن أوصله الناقد إلى قمة اللعب فى الكرة . . إلى دى ستفانو . . الذى هو فى الأربعين والذى هو فى المائة ، إذا حسبت الأهداف العالمية التى أحرزها . لا وجه للشبه بين الاثنين ، لا فى الاسم ولا فى الجسم ولا فى اللياقة ولا فى الخبرة . . ولا يوجد هناك أية مناسبة . .

وإنما السبب هو أن هذا الناقد متحمس لناد معين . . ويرى من واجبه كمتحمس أن « يتوصى » باللاعب الذى أسعدته الظروف فأحرز هدفاً . . .

وليست مهمة الناقد أن «يتوصى » أبدا . وإنما مهمته أن يمسك يده . . أن يعطى بحساب . . أن يأخذ بحساب . . أن يقف فى وجه التيار . . فإذا قالت الجماهير أن هذا اللاعب أعظم من دى ستفانو ، يجب أن يقول للجماهير لا . . بل بينه وبين دى ستفانو مئات الأهداف وعشرات السنين وألوف المباريات واللياقة والتجربة والتفرغ والتخصص والخمر والحشيش والنساء والاستخفاف . . يجب أن يقف فى وجه الناس ليقول كلمة الحق . ليشهر فى وجه الناس بالأصول والقواعد .

لأن هذا النقد هو أسرع طريقة لانهاء حياة لاعب . لأنه نفخ فى الكرة حتى تنقطع . . وبعد ذلك لا يجدى فيها النفخ إذا انقطعت . كما حدث لصالح سليم ، وغيره . . ولكثيرين من نجوم المسرح والأدب

والفن . . فقد انتفخوا حتى فرقعوا . وهم لم ينتفخوا وحدهم وإنما النافخ هو الناقد . .

ولذلك فالناقد يجب أن يحرص على أنفاسه . .

يجب أن ينفخ بحساب . لأن عمر اللاعب الرياضى قصير . . إن خمس سنوات فى عمر لاعب الكرة تساوى عشر سنوات فى عمر المطرب ، وعشرين سنة فى عمر الممثل . وثلاثين سنة فى عمر الكاتب . .

ولكن عمر اللاعب الرياضى قصير . . والإهمال والاستخفاف يجعله أقصر والنقد النهريجى يجعله أقصر وأقصر . .

قرأت أيضاً رأياً لناقد رياضى آخر يقول إن صالح سليم لا يزال مايسترو كرة القدم حتى الآن . .

وأنا شخصياً لا أعرف المعنى المقصود بكلمة مايسترو هنا . . ولكن أعرف المقصود منها فى الموسيقى . فالمايسترو هو الرجل الذى يقود الفرقة الموسيقية فى براعة وخفة ودقة لتؤدى لحناً معيناً لحناً محدداً . له أول وله آخر . وهو فى نفس الوقت أقدر من كل العازفين على الأداء الموسيقى . . وهو أيضاً فى استطاعته أن يعرف أكثر من آلة موسيقية . .

ولكن لم أسمع عن مايسترو لا يحرك فرقته . .

حتى أحمد فؤاد حسن الذى هو المايسترو الجالس والذى يقود الفرقة الموسيقية بظهره . . وهذا شىء لا نظير له فى العالم كله . يقود فرقته وهو يعزف وهو أقدر العازفين على القانون . .

ولكن صالح سليم يشبه أحمد فؤاد حسن مع فارق واحد هو أنه لا يعزف وأنه لا يقود وأنه لا يجلس وإنما يجرى من العازفين .!

وأنا أعتقد أن الناقد الذى يقول عن صالح سليم مثل هذه العبارة ليس جاداً . . وإنما هو رجل يغيظ النقاد الآخرين . . ويتحدى رأى الجمهور ، بل يتحدى صالح سليم نفسه . . الذى ينزل إلى الملعب وهو

يبحث عن طريقة أخرى للاختفاء من عيون الناس . .

وكل هذا يؤكد خطورة النقد الرياضى . . الذى ليس نقداً وليس رياضياً .

فالناقد هو الذى يعرف كيف توزن الأشياء والأعمال . .

فالقطن يوزن بالقنطار . واللحم بالكيلو والذهب بالجرام . . ولا يوزن القطن بالجرام والذهب بالكيلو .

فلا يقال للاعب ما يزال لحماً طرياً ، أنت سبيكة من ذهب . . ولا يقال لكيس قطن أنت ملك كمال الأجسام . .

وخطورة هذا النقد الرياضى ليست فقط على اللاعبين الصغار . وإنما على الشباب الصغار من المتفرجين . . فهو يضلل اللاعبين ويضلل المتفرجين لأن اللاعب الذى أصبح دى‌ستيفانو فى مباراة واحدة من حقه بعد ذلك أن يعتزل اللعب . .

وخطورة هذا النقد الذى يهدم النقد ويهدم ثقة الناس فى النقد . . على الشبان الصغار الذين التصقت عيونهم بكرة القدم . . فهم فى كل يوم يسمعون عن ظهور لاعب مثل بوشكاش . . ومن الممكن أن يكون هذا البوشكاش لم يسجل هدفاً واحداً . . ومن الممكن أن يجدوا شاباً صغيراً لم يقترب من أية شبكة . ومع ذلك يسمونه « صاحب مدرسة » فى الكرة . أية مدرسة ؟ وأية كرة . ؟ ومن هو ليكون صاحب مدرسة ؟ وهو ما يزال تلميذاً فى مدرسة أو فى حاجة إلى مدرسة ؟

هذه هى الجريمة التى تقع على ملايين الشبان بحسن نية . هذه هى المؤامرة الرياضية لإفساد جيل من أوله لآخره ؟

والقارئ يظن أنه دون الكاتب . . واللاعب يظن أنه دون الناقد . . وهو يشترى كلامه بفلوسه . . ويتقبله ويتعلم منه . . ولكن يتقبل ماذا ؟ ويتعلم ماذا ؟ يتعلم أن يوزن الذهب بالأقة أن يوزن الأطفال بالأبطال . .

إنني لا أدعي أن النقد الرياضي هو وحده الذي داس القواعد ، ومسح الأرض بالأصول وأنه تخلى عن منصة القضاء . . وراح يتظاهر أمام المحكمة ويطالب بالعدالة . . مع أنه هو العدالة . . وهو ميزان العدالة . . وأنه يجب أن يكون معصوب العينين ، واليدين ، وأن تكون ملابسه بلا جيوب . .

إنما سقط النقد الأدبي والفني وتردى إلى نفس الهاوية . . والنتيجة واحدة : هي التضليل بحسن نية وافساد القيم وتشويش عقول الشبان .

إننا اشتركنا في الطبل والزمر لشبان صغار ظهروا على المسرح لأول مرة . . وطاشت أحكام ، وارتفعت شعارات من بينها : ظاهرة جديدة . . ريحاني جديد . . موليير زمانه . . تشيخوف العصر والأوان . . فيلسوف الغبراء . . دينامو ألكتروني « لا أعرف إن كان هذا التعبير من الناحية العلمية سليماً ، ولكن قيل هذا في مناسبة فنية » .

كل هذا قيل . . ولم يعد هؤلاء الشبان الصغار في مجالات الأدب والفن يتوقعون من النقاد كلاماً أقل من هذا . .

ليست الكرة وحدها هي التي تمر بمحنة . ولكن النقد الرياضي هو المحنة الحقيقية . . فاللاعب الذي ينزل الملعب وفي أذنه أنه أعظم لاعب في الدنيا فيتصور أن الكرة يجب أن تلتصق بقدمه . وأن الشبكة يجب أن ترفرف حوله وتمتصه هو والكرة وبلا مجهود ، هذا اللاعب معذور . .

ولكنها جريمة . . والذي ارتكبها يجلس بين صفوف المتفرجين ، وفي يده ورقة وقلم ويكتب سطور هذه المؤامرة على الشباب وبحسن نية !

لأسباب . . يفضح الكاتب نفسه !

أنا من المعجبين بالكاتبة الفرنسية العظيمة سيمون دى بوفوار وقد قرأت لها كل ما كتبت من قصص ومسرحيات ويوميات ومذكرات . وأرى فيها نموذجاً محترماً للعقلية المتحررة . . وأراها قمة لم تبلغها أية فتاة حتى الآن فى العالم كله . .

وعند ما انضمت الكاتبة الفرنسية إلى المدرسة الوجودية ، نشرت كتاباً تحدد فيه موقفها من هذه الفلسفة الجديدة . وأعلنت أنها دخلت هذه المدرسة بشروطها ، لا بشروط المدرسة . وأنه لا يوجد أى مذهب عقلى يقيد حريتها . وإنما حريتها هى القيد الوحيد الذى يحدد حركاتها ونشاطها وهى لذلك ليست وجودية . وإنما هى تتناول نفس أفكار الفلاسفة الوجوديين . ولكن على طريقتها هى الخاصة !

يعنى أنها شخصية ! .

وعند ما أصدرت كتابها عن المرأة ، وهو أوفى وأجمل كتاب صدر حتى الآن عن نفسية المرأة ومشكلاتها وتاريخها ، أكدت أن تاريخ المرأة هو فى عبارة واحدة : محاولتها التحرر من الرجل . وقد تحررت المرأة من الرجل . وبقى أن يتحرر الرجل من أفكاره السخيفة عن المرأة . !

يعنى أنها شخصية متمردة . . ولكنها على حق !

وعند ما أصدرت قصتها الضخمة التى عنوانها « المثقفون » وعرضت للحياة الفنية والأدبية والسياسية فى باريس وتناولت كل المفكرين فى باريس . . وروت كل شىء بصراحة وفى إطار فنى متين ، قالوا عنها إنها جريئة . وكان ينقصها أن تكشف عن وجهها وتقول للناس من هم الأبطال الحقيقيون وما هى أسماؤهم الحقيقية !

يعنى أنها جريئة إلى حد ما !

ونشرت بعد ذلك سيمون دى بوفوار اعترافاتها كاملة بعنوان « مذكرات فتاة متزنة » . . ثم أكملتها فى مجلد آخر اسمه « قوة العمر » وفى مجلد ثالث اسمه « منطق الأشياء » . .

ثم كتابها الصغيرين وفاة أمها بعنوان « موتة هادئة » . .

وفى هذه الاعترافات قدمت سيمون نفسها لكل الناس فى العالم . . تحدثت عن نشأتها المتدينة . وعن أبيها المحامى وأمها المحافظة جداً . . وما زالت تروى تاريخ حياتها . . وكلما مشت خطوة فتحت نافذة . ثم عادت وفتحت باباً . ثم أزالت السقف كله . ووقفت فى ضوء الشمس بملابس شفافة . . حتى ملابسها الشفافة راحت ترفعها القطعة بعد الأخرى .

ولم تكن سيمون تريد أن تتعرى . لمجرد أنها تريد إثارة الناس وفى إثارة الناس متعة لها . وإنما هى تتعرى ، كما يتعرى الذى يريد أن يستحم فى البحر . أو كما يتعرى المريض أمام الطبيب . . أو كما يتعرى الناس تحت ضوء الشمس . . فهى تعرت نفسياً وجسمياً واجتماعياً . . ووضعت صورها العارية فى إطار له معنى له هدف . له قيمة . .

لقد تعرضت فى طفولتها ومراهقتها وصداقتها للفيلسوف سارتر . . وصداقتها لغيره من الأدباء والفنانين .

ثم سجلت على نفسها كل ما شعرت به كل ما ضايقها فى حياتها الخاصة كفتاة ، وفى حياتها العامة كأديبة وموظفة . . ثم تعرضت لحياة المرأة فى فرنسا وفى العالم كله .

* * *

وليست سيمون دى بوفوار هى وحدها التى انفردت بكتابة اعترافاتها فمعظم الأدباء المعاصرين من الشبان ومن الرجال الناضجين قد سجلوا اعترافاتهم فى أوائل حياتهم . .

وكان المألوف فى القرن الماضى والذى قبله . أن الأديب أو الفنان يسجل اعترافاته ، ثم يوصى بنشرها بعد وفاته . لأن فى هذه الاعترافات أحداثاً وآراء يخشى من نشرها وهو على قيد الحياة . خصوصاً إذا كان يتعرض للدين أو للجنس .

أما فى القرن العشرين ، فقد تغير الوضع تماماً . فكثير من الأدباء الشبان ينشر اعترافاته هو بصراحة صارخة . وبعد ذلك يتحدث فى موضوعات أخرى غير شخصية . فكأنه يحرص من أول حياته الفنية على أن يتخفف من العقد النفسية ومن ذكريات فشله . وقصص فزعه . . وبعد ذلك يتجه بخفة وراحة إلى عمله الفنى .

بل إننا رأينا معظم الأدباء — والأديبات خصوصاً — بعد أن ينشروا قصة أو مسرحية ، يعلنون فى الصحف أن هذه القصة أو المسرحية تعبر عن حياتهم الشخصية . . وأن البطل ليس إلا المؤلف . فكأن هذا المؤلف حريص على أن يعلن أن هذه ليست مسرحية لأبطال غير معروفين . وإنما هى قصة اعترافاته وأنه يتحدث عن نفسه .

وعند ما نشرت فرنسواز ساجان قصتها الأولى « مرحباً أيها الحزن » وأقبل عليها الناس فى كل الدنيا اعترفت فى مؤتمر صحفى أن هذه قصة حياتها . فهى لا تخجل من حوادث القصة . وهى فى نفس الوقت حريصة على أن تعترف للقراء بذلك . .

وكذلك فعل الأدباء الساخطون فى إنجلترا . .

واعترف أيضاً الأدباء الصاخبون فى أمريكا . .

وكل هؤلاء من الشبان . . ولم ينفرد الشبان بالرغبة الشديدة فى الاعتراف بأخطائهم وخطاياهم وعيوبهم . وإنما الأدباء الكبار أيضاً . .

ولذلك يمكن أن يقال إن هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر « الاعترافات » أو عصر « الصراحة » وبأى ثمن . . فالكاتب الفرنسى

العظيم جان جينيه يعلن بوقاحة ، أى بصراحة عارية : أنه لقيط ولص وشاذ . .
ثم يجيء مفكر عظيم مثل سارتر ويقول : . . وعبقرى أيضاً !

* * *

وهناك أسباب كثيرة تجعل الكاتب يرفع الكلفة بينه وبين القارئ ويصارحه أو (يواقحه) إذا صح هذا التعبير . .

قد يكون السبب دينيا . فالكاتب يحس أنه أمام رجل من رجال الدين . . وأن الكاتب مخطئ . . وأنه لا بد أن يعترف للقارئ الذى يقوم بدور الكاهن . وأن القارئ سيخفى هذا السر الخطير . . الذى اعترف به المؤلف أمام ملايين القراء . . ولكن المؤلف لا يتصور هذه الملايين ، وإنما يتصور قارئاً واحداً فقط ! !

ثم إن الاعتراف يريحه من الناحية النفسية . . فالكاتب يخفف الضغط على نفسه . . يفك عقده النفسية . . ويطلق الوحوش الكاسرة التى احتبست فى نفسه . . ويفتح قفصه الصدرى ويتركها تقفز على الصفحات . .

ويعطى بذلك نموذجاً للقارئ لكى يفعل مثله . . فلا يخفى شيئاً . . وإنما يحاول باستمرار أن يحل عقده بأصابعه ، وأن يفك خناقه باختياره

فنحن لا نزال نعيش فى الظلال الكثيفة التى سحبها العالم النمسوى فرويد على القرن العشرين كله . فهو قد علمنا أن نتخلص من الرواسب التى تتكاثف فى أعماق الشعور . وعلمنا أيضاً أنه لا شيء ينتهى . فكل ما نفعله وما لا نفعله يترك أثراً غائراً فى متاهات النفس . ولذلك يجب أن نفتح له طاقة فى شعورنا . لكى يهرب من الظلام إلى النور ويموت . .

كما أن اعتراف الكاتب بأنه كان فقيراً وكان أبله . . أو كان غبياً وهو تلميذ . . أو كان مغفلا وهو زوج . . هذه الصورة التى تشوه الكاتب فى عين القارئ ، لم تعد تضايق أحداً الآن . فكل شيء كان صغيراً . وكان تافهاً . فنحن نعيش فى عصر الشيء الصغير . فى عصر الإنسان

الصغير . وفى عصر الذرة .

فتصغير الأشياء والناس لا يحط من قدرها . بل يرفع من قدرها فى عيوننا . فالطاقة الضخمة أصلها ذرة ، والتاريخ تدفعه الجماهير ، والجماهير أصلها الإنسان العادى : رجل الشارع أو العامل الأجير . . أى أن القوى المحركة للتاريخ ليست إلا هذه الذرة الإنسانية أى ليست إلا الإنسان الصغير . .

فهذا التصغير الذى يقوم به المؤلف ، أو هذا « التضئيل » أو « التتفيه » أو « التقزيم » — إذا صحت هذه الكلمات — إنما هى محاولة من المؤلف أن يقول إنه كان لا شىء . ثم أصبح شيئاً . . إنه كان تافهاً . وأصبح قيماً . إنه كان ذرة وأصبح طاقة ، إنه كان فرداً وأصبح جمهوراً .

ويمكن أن يقال إن هذه الاعترافات هى نوع من « النقد الذاتى » . . فالمؤلف ينتقد نفسه علناً ، يعترف بأخطائه أمام قرائه . وهو فى نفس الوقت يعاهدهم ألا يكون كذلك . . ثم إنه يريد أن يقول لكل أصحاب العيوب أنهم ليسوا وحدهم ، فقد كان هو أيضاً مثلهم . .

وربما كانت الاعترافات التى يلجأ اليها الأديب هى نزعة مرضية ، فهو يريد أن يعذب نفسه أمام الناس . . وذلك عن طريق تشويه نفسه . . « تبشيع » صورته أمام القراء . . ثم يندم على هذه الصورة البشعة ويبكى حظه . فهو الذى يختار الصورة القبيحة وهو الذى يتعذب بها . . فكأنه هو الذى اختار العذاب . . وهو اختار العذاب لأنه يجد لذة فيه . . تماماً كالشواذ الذين يجدون متعتهم الكبرى فى أن يضربهم الناس وأن يكووا جلودهم بالنار . . والمرأة التى تحلم بالرجل الذى يقف على شاربه الصقر . هى امرأة تبحث عن رجل يخيفها ويرهبها . ومن هذا الخوف والرهبة تستمد لذتها ، فالشىء الذى يعذبها ، هو نفسه الشىء الذى تستمتع به . وكذلك الذى يفضح نفسه ، يعذب نفسه بنفسه . وفى ذلك

لذته .. فهو الفاضح والمفضوح . وهو الشقي والسعيد معاً !

وفي هذا يقول الكاتب الفرنسي جان جينيه : إنني لست في حاجة إلى جمهور يرميني بالبيض والطماطم . إنني أستطيع أن أخلق مثل هذا الجمهور وأتفرج عليه وهو يتفرج على صرخاتي ودموعي !

وتقول الكاتبة الإنجليزية شايلا ديلاني : لو كانت عندي رقبة واحدة لقطعتها واسترحت . . ولكني أملك عشرات الرقاب أقطعها كل يوم ، وأنام بعدها وأنا أبكي على دموع القراء . . وهذا هو الوهم السعيد الذي يعيش فيه كل فنان !

وسيمون دي بوفوار تقول : إنني أعرف أن هذه السطور ستجمد الدم في عروق خالاتي وعماتي . . ولم أفكر في ذلك إلا الآن فقط . . ولكن يجب أن أنسى هذا الحادث المؤسف ، لكي أكمل قصتي !

فهي لا يهمها كثيراً أن تجمد دماء خالاتها أو عماتها . ولا يضايقها أن يقع هذا الحادث الأليم . وإنما يضايقها أكثر . ألا تتمكن من إكمال قصة صراحتها مع نفسها ومع القراء . .

وربما كانت أسباب الاعترافات هي النزعات التاريخية الموجودة عند كل الناس . فكل شيء في عصرنا له تاريخ أو يجب أن يكون له تاريخ . أو من الممكن أن يكون له تاريخ . . ولذلك يبحث كل إنسان عن طفولته ليجد نقطة بداية . ومن هذه البداية يتصاعد إلى نهاية . . إلى قمة عبر سلم من الكفاح ، لا بد أن يكون السلم من الدموع والعرق والمصاعب وسوء الحظ والصدف السيئة . ومن هذا الجو التاريخي تظهر لنا صورة مرسومة بعناية . ولا بد أن يستعين في رسم هذه الصورة بكل الألوان . . خصوصاً الأسود والأحمر . . تماماً كما خلق الله العالم من الظلام ، ثم أكمل العالم بأشعة نور الشمس .

وتاريخ كل إنسان يبدأ بتواضع شديد وينتهي بغرور شديد . . بل

إن التواضع نفسه نوع من الغرور . فالذى يتواضع يريد أن يقول إنه أكبر من هذا بكثير وأنه لا يضايقه أن يكون متواضعاً . لأن التواضع لن ينال منه شيئاً . . وأن التواضع من أخص صفاته . . وهذا هو منتهى الغرور . . !

* * *

وأصدق صورة لنفسية هؤلاء . « المحترفين » . . هى قصة رواها الإغريق من ألوف السنين.

فقد كانت هناك تسع أخوات مقدسات وكان يطلق على هؤلاء الأخوات اسم ربات الفن . . وكن فتيات عذارى أطهاراً معظم الوقت . . وكانت من بينهن واحدة اسمها كليو . . وهى ربة التاريخ وكانت ترتدى فستاناً طويلا . أطول كثيراً من فساتين أخواتها . ولسبب لا تعرفه أطلق الآلهة على هذه الفتاة وحدها عدداً من القرود تداعبها باستمرار وترفع أطراف الفستان فى أوقات غير مناسبة . وكانت كليو هذه تضيق بوقاحة القرود .

وفى إحدى المرات اتفقت مع القرود أن يعروا جانباً من الفستان فى مناسبة معينة . وبعد ذلك اتفقت مع القرود أن يعروا فستانها كاملا فى حضور بعض الآلهة والأبطال . وفى إحدى المرات بحثت عن القرود فلم تجدها . . فقد كانت حريصة على أن تتعرى أمام أحد الأبطال . ولكن لم تشأ أن تتعرى باختيارها . وإنما كانت تريد القرود أن تتولى عنها ذلك . ولما حضرت القرود انهالت عليها ضرباً . وظن القرود أن ثوبها قد رفعه الهواء . فحاولت القرود أن تغطى جسمها العارى . فزاد غضبها وثارت . ومدت يديها وتعرت . . وتعرت . . ولما لم تجد البطل أمامها راحت تبكى على جمالها الذى لم يره أحد ولما تذكرت أن لها ساقاً مشوهة بكت

مرة أخرى على ساقها التى لم ترعب أحداً من الناس !

إن العذراء كليو بروحها وصراحتها ووقاحتها . وحرصها على أن تتلذذ بعذاب الآخرين . ليست إلا من بنات القرن العشرين . . من بنات عصر الفضائح الأدبية وغير الأدبية . . !

ضيف على السد العالى

ذهبت إلى أسوان أستريح فى ضيافة الذين لا يستريحون . لأنهم يبنون السد العالى . وهذه هى المرة الثانية التى أسافر فيها إلى جنوب القاهرة . فقد كانت المرة الأولى يوم سافرت مع قواتنا إلى الكونغو !

ولم أكن أتصور أن أسوان بهذه الروعة . فيها كل مظاهر القوة : عضلات من صلب وأعصاب من حديد . ولحم من جرانيت . ودم من نار . وعظم من أسمنت مسلح . . وفيها كل ملامح الهدوء والبساطة والمتعة : الورود والزوارق الشراعية والسماء الصافية جداً . والهواء الذى جف ريقه . فهو لا يعرف الرطوبة . وفيها شعوب الدنيا كلها جاءوا ينزعون ملابسهم ويستحمون فى فيضانات الراديوم التى تنهال على صخور أسوان . .

فنى أسوان أناس فى غاية الرقة والطيبة . ولكن أعمالهم تدهشنى . . فهم ينسفون الصخور بالديناميت وينقلون حطام الجبال فى العربات والأوناش ثم يسحقون الصخور ويعجنونها ويخبزونها فى الأفران . . ثم ثم يصبون الماء على النار . ويستخرجون الكهرباء من الماء . ويحبسون الهواء ويطلقونه فى الأنفاق . .

فالذى يحطمونه يحتفظون به مرة أخرى فى الأسلاك والذى يبنونه اليوم ، كل ما يبنونه اليوم والأمس وقد أغرقوه فى شهر مايو أمام عينى الرئيس جمال عبد الناصر ! . .

كل شىء ينتقل فى أسوان من وإلى السد العالى . أو بمناسبة علو السد : عشرات الألوف من العمال والمهندسين والخبراء . بعائلاتهم قد

انتقلوا إلى جوار السد . . مجندين طول النهار والليل . أما معبد أبو سنبل الذى بناه رمسيس الثانى الذى حكم مصر ٦٧ عاماً . وأنجب مائة طفل . سينقل إلى مكان أعلى من مستوى النهر بعد إتمام السد العالى . .

ومعبد كلبشة نقله الألمان قطعة قطعة من مكانه إلى شمالى السد ، وفى مكان مرتفع أيضاً . . واحتفظوا للمعبد بكل مداخله القديمة . .

وأبناء النوبة انتقلوا من أماكنهم التاريخية إلى مستعمراتهم الجديدة بالقرب من كوم امبو « ٢٥ ألف مسكن و ١٢٨ دكاناً و ٣٣ مسجداً و ٣٧ مدرسة » . وقد هاجر أهالى النوبة من بلادهم قبل ذلك عند إنشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ثم هاجروا مرة أخرى عند تعلية خزان أسوان سنة ١٩١٢ وهاجروا مرة ثالثة عند تعلية الخزان للمرة الثانية سنة ١٩٣٣ وهذه هى المرة الرابعة . وقد زرت بيوتهم الجديدة . . إنها نظيفة أنيقة . ولها أبواب وردية رقيقة ليس لها ترباس ضخم . وهذا ما يضايقهم . . وليس فى هذه البيوت « مضيفة » لاستقبال الضيوف . أو على الأصح ليست هناك المضيفة التقليدية المنفصلة عن البيت . . والتى يراها كل أهل القرية فيعرفون أن صاحب البيت عنده ضيوف . . أى أنه رجل مهم وكريم !

على كل حال انتقل أهالى النوبة إلى قراهم الجديدة ولم يفقدوا إلا تراب الخيام . وإلا مقابر موتاهم . وأهالى النوبة كانوا القوات الضاربة لجيوش الفراعنة . وكانوا أيضاً تجاراً للعاج والذهب . وحكموا مصر مائة سنة « ٧٥٠ — ٦٥٠ قبل الميلاد » وكان ملكهم بيانخى أشهر نوبى فى التاريخ وكان يحب الخيول ويدفنها فى مقابر فخمة . وكان حاكماً عظيماً . ويبدو أن النوبيين لهم رأى آخر فيه . . فهم أولا لا يعرفونه وثانياً لم أجد عندهم حصاناً واحداً !

حتى المثل القديم الذى يقول : إذا لم يأت الجبل إلى إبراهيم ذهب إبراهيم إلى الجبل .. لم يعد صحيحاً .. لقد تغير ككل شىء فى أسوان ، فالمثل يجب أن يقول : إذا لم يأت الجبل إلى إبراهيم فلا داعى لأن يذهب إليه . . وإنما سيجىء الجبل رغم أنفه ! وهم فى أسوان ينقلون الجبال من شاطئ إلى شاطئ . . فجبال الرمال يلقون عليها الماء . ثم يدفعون الرمال المبللة . أو عصير الجبل . فى أنابيب عبر النيل . . لتتحول الرمال إلى جبل آخر من صنع الإنسان ! .

وفى الليل تبدو منطقة السد العالى مثل فرح هائل . . مولد لأحد أولياء الله . أو كالليلة الكبيرة لمولد كل أولياء الله الصالحين . . فالناس يذهبون بالنار ويصرخون ويتعلقون من السقوف والسيارات والجرارات والمواسير .. ويرددون ألحاناً تشبه تراتيل الكنائس . . ويكسرون الجرانيت كأنه حلاوة حمصية ويعجنونه كأنه حلاوة سمسمية . .

وفى الجانب الآخر من أسوان . وعلى نهر النيل وفى مواجهة جزيرة الفانتين وضريح أغا خان واستراحة البيجوم . وحديقة النباتات . . يوجد فندقان مختلفان . . فندق كتراكت القديم بدفئه الشديد ولونه البنى الذى يمتص حرارة الشمس ، فيحس الناس أنهم فى صيف القاهرة الذى يشبه شتاء أسوان . . وفندق كتراكت الجديد الذى فيه كل شىء بالزراير . . تماماً كأجهزة السد العالى . . تضغط على زرار فتضىء كل مصابيح الغرفة تضغط على زرار آخر فتسمع الموسيقى . . على زرار ثالث فيجىء الجرسون ومعه براد شاى ، هذا البراد هو نموذج للحالة النفسية فى أسوان كلها . . فالبراد ليس لغطائه ثقب ولذلك يتساقط منه الشاى فى كل مرة تحاول أن تصبه فى فنجان . . وقد طلبت من مدير الفندق أن يخرم البراد . وذكرت له أنهم فى الناحية الأخرى يحقنون الجبال

بالديناميت. وأنهم يخرمون الجبال والحديد فى دقائق .. وظللت أياماً أنتظر رؤية هذا الخرم ــ طاقة القدر هذه ــ ولكنى لم أعثر له على أثر . . بينما ظل ألوف العمال يمزقون الحديد كأنه ورق . . ويمزقون الجرانيت كأنه براد شاى . . فهناك سرعة هائلة وهنا بطء شديد ينافس الصخور النائمة فى الماء . .

وهنا الزوارق الصغيرة التى يقبلها الهواء مرة على خدها الأيمن . ومرة على خدها الأيسر .. وتمضى فى سلام بين صخور جلست عليها سيدات فى ملابس سوداء يغسلن ملابسهن البيضاء والملونة . تماماً كما تفعل كل نساء الدنيا .. فى ألمانيا وايطاليا والسويد . . والملابس السوداء للمتزوجات لأنها صورة للحشمة . . والملابس الملونة للفتيات . وملابس الفتيات هى نسخة طبق الأصل من الفساتين التى اكتشفها أحد الإيطاليين فى « وادى الملكات » . . هذا الإيطالى اسمه أرنست اسكباريللى . . وهو من نفس الأسرة المشهورة التى تصمم الأزياء وتبتكر العطور فى أوروبا !

ومعظم الأجانب جاءوا إلى هذه المنطقة لكى يروا «أبو سمبل» قبل أن نرفعه إلى قمة الجبل . وقبل أن يكتمل السد العالى . . ولكى يشحنوا أجسامهم بكمية من الراديوم . ويقال إن أسوان بها كمية غير عادية .

وقد سمعت تفسيراً يقول : إن شمس أسوان هى هى فى الدنيا كلها . لكن الشىء الجديد هو انعكاس هذه الشمس على صخور من الجرانيت . . فالجرانيت هو مصدر هذا الإشعاع الراديومى الذى يقوى أجسام العواجيز الذين جاءوا يقترضون مبلغاً من الشباب فى رحلتهم إلى نهاية العمر !

وتحت نافذتى أرى عدداً من العمال يدفعون أمامهم برميلاً كبيراً بنفس الطريقة التى استخدمها الفراعنة منذ ألوف السنين . . فهم يضعون

البرميل على أعمدة من الخشب. ثم يدحرجونه إلى الأمام . وهى عملية تستغرق فى العادة يوماً كاملا . .

وقد سمعت عن شارع صغير يعترضه حجر من الجرانيت . . والحجر كبير . . وظل هذا الشارع شهوراً لا يقترب منه أحد . وإنما يلف حوله الناس بسياراتهم كما تلف مياه النيل حول الجنادل . . فقط يلف ويدور ولا يستطيع أن يحركها . . ولكن حدث فى يوم أن جاء بولدوزر وأزال هذه الصخرة فى دقيقة واحدة وانفتح الشارع وسارت فيه الأقدام والعجلات . .

فقد ظلت الصخرة الواحدة . فى مكانها شهوراً . دون أن يزحزحها أحد . . ثم جاءت آلة ضخمة فزلزلتها . .

بهذه السرعة تنفتح الشوارع . . وبهذا الصبر يواجهون العقبات فى أسوان . .

* * *

وأما السماء فهى دائماً صافية .. والألوان صريحة . . وأما الشمس وخصوصاً الشمس .. فهى تظهر فى أسوان عارية تماماً . . أو كأنها ارتدت ألوانها على اللحم .. عند الغروب وعند الشروق . . فيبدو لونها كهرمانياً صارخاً . . . خليطاً من الأحمر الدامى والأصفر الذهبى والأزرق النيلى والأسود الغطيس .. أما فى القاهرة فهى لا تظهر عارية . . وإنما تخجل من ألوانها الصريحة .. أو إذا ظهرت ألوانها الكهرمانية . فهى تضع عليها بالطو من هباب المصانع وبنزين السيارات متوارية وراء العمارات عن عيوننا الحمراء التى لا تقوى على النظر إليها !

* * *

ولكن أسوان متعة لمن يرى . ومتعة لمن لا يريد أن يرى . متعة لأن تتفرج على الذين يتعبون من أجل راحتك . . ومتعة أن تعيش مع هؤلاء الذين دفعوا غالياً جداً ليبيعوا الكهرباء بالقروش والماء بالملاليم . . لكل الأجيال القادمة .

ولا بد أن يسافر إلى أسوان أكبر عدد ممكن من أبناء مصر . . من كل الهيئات والمهن . من الرجال والنساء والشبان . . يجب أن يروا السد قبل أن يكمل .

* * *

قلت للرجل الذى يدير هذا المشروع التاريخى وعلى وجهه ابتسامة أسوان الهادئة . وفى أرقامه وإصراره ملامح أسوان الجديدة : إن الناس يجب أن يروا هذا العمل الجبار فى أسوان . . وبصورة أخرى غير التى تراها فى دور السينما . . فى دور السينما تطالعهم أفلام صغيرة ثابتة جامدة عن السد العالى . . فكل شىء فى دور السينما يتغير إلا شيئين : كلمة « استراحة » وأفلام السد العالى . . فما رأيك ؟

وأجابنى الوزير صدقى سليمان بأنه قد تنبه إلى هذه الحقيقة . ولذلك فهو يدعو الناس من كل القطاعات وعلى كل المستويات لزيارة السد العالى . . وهو أيضاً سيتفق مع مخرج سينمائى كبير يقيم مدة طويلة فى أسوان . ليرى ويعيش وينقل الصورة الجميلة الممتعة التى تبقى مع الزمن . .

* * *

وفى يوم ١٥ مايو توقف بناة السد عند ما ذهب الرئيس جمال عبد الناصر ليشهد النيل وهو يتحول عن مجراه . .

وانعكست صورة عبد الناصر على البحيرة الهائلة أمام السد . . . واحتفظت البحيرة بالصورة والاسم إلى الأبد . .

فليس تحويل النيل بالشيء الصعب فقد استطاع عبد الناصر أن يحول شيئاً آخر أقوى وأقسى من الماء بين الصخور . . لقد حول مجرى التاريخ فى مصر وفى العالم العربى كله . . !

ولا يسعنى وقد استرحت فى أسوان فى ضيافة الأيدى الحديد. والأرجل الصلب . والعقول الألكترونية . إلا أن أردد الجملة التى قالها يوليوس قيصر فى مسرحية « كما تحب لشكسبير » : لقد ذهبنا ورأينا وانتصرنا . . . فى بور سعيد وفى أسوان وفى كل ميدان . . !



جيوفانا والحمل — للفنان جرويتزى — مجموعة والاس بلندن



السيدة وابنتها — للفنانة إليزبث فيجى لبرون — متحف اللوفر ، باريس

عاش بالموت . . ومات بالحب !

كل ما تعرفه عن هذا الرجل أنه مخترع سويدى وأنه ترك ثروة ضخمة كسبها من بيع الديناميت وأنه قبل أن يموت أوصى بأن تكون هناك خمس جوائز للنابهين فى الطب والكيمياء والفسيولوجيا والأدب والسلام ، وأنه بعد وفاته اختلف الناس على هذه الوصية . ومعظم أهل السويد اتهموه بالخيانة الوطنية لأنه ينفق أمواله على أناس أجانب . . ولأنه أوصى بأن يكون برلمان النرويج هو الذى يختار الرجل الذى يمنحه جائزة السلام ، وأن عدداً كبيراً من أقارب هذا الرجل اتهموه بالجنون . بل إن ملك السويد استدعى أحد إخوة المخترع الكبير وطلب اليه أن يغير الوصية ، وخصوصاً الفقرة التى جاءت عن السلام . لأن المرحوم كان قد كتبها تحت تأثير فتاة مغامرة . .

ورفض أخوه ألفريد نوبل . تغيير حرف واحد من هذه الوصية التى حرمتهم من كل الملايين التى تركها من بعده .

فهو بالاختصار أحد كبار المخترعين ، وأحد كبار المحسنين . .

ولكن ليست هذه هى صفات الرجل نفسه . وإنما هى صفاته من الخارج . فالاختراع هو صفة تنطبق على علاقته بتركيب المادة ، والإحسان صفة تنطبق على علاقته بالفلوس ، غير أن ألفريد نوبل إنسان آخر مختلف تماماً عن هذا المخترع الذى لم يدخل مدرسة ولا جامعة . وإنما كان طفلا حساساً رقيقاً مريضاً . عاش وحيداً معظم الوقت . وتؤذيه أصوات الناس ، وكان يهرب من أبيه ومن إخوته لأسباب لا يعرفونها .

وكان أبوه رجلا مخترعاً .. وهو أيضاً لم يدخل مدرسة .

ولكن كان أبوه أكثر قلقاً منه ، وكان لا يهدأ ولا يبقى فى مكان واحد . فقد حمل أولاده وسافر بهم من السويد إلى روسيا ، واشترك فى الدفاع عن السواحل الروسية ، طول فترة حرب القرم . وأنشأ مصنعاً للأسلحة هناك . ثم هو الذى قام بصناعة ألغام الأعماق ووضعها بالقرب من شواطئ البحر الأسود . ثم انفجر المصنع الذى يملكه . وعاد إلى السويد . وفى السويد كانت الحياة أقسى . فالمصنع الذى أقامه فى السويد انفجر هو أيضاً . .

وفى ذلك الوقت كان الابن ألفريد نوبل مشغولا بأبحاثه عن النتروجليسرين . . وعن طريقة توصل إلى اختراع الديناميت . . ثم البارود عديم الدخان ، وسجل الابن اختراع الديناميت . وبدأ يبيعه لكل شعوب العالم . وتعالت الانفجارات فى أوربا وأمريكا ، وتكاثرت الأموال أيضاً . وأقام الابن ألفريد نوبل فى باريس . ثم استدعاه أبوه ليعاونه فى حل مشكلة كيميائية ، وعاد الابن وسجل انفجاراً جديداً هدم المصنع وقتل أخاه الأصغر ، وبعد ذلك بأسابيع مات أبوه .

ولكن متاعب الابن ألفريد نوبل لم تنته . فهو يشعر فى أعماقه بأنه حائر وضائع . وحكاياته الكثيرة التى يكتبها باللغات الأربع التى يجيدها تماماً ، تكشف كيف أنه إنسان آخر لا يتوقف عن البكاء على حاله . وعلى شبابه . وعلى حياته التى ضاعت فى المعامل . وفى الأحماض وفى النار وفى الحديد .

فهل تصدق أنه هو الذى يقول : تقولون أصدقائى ؟ أين هم أصدقائى . لا أحد صديق لأحد . إننى أستطيع أن أجد بين الكتب ألف صديق . إن الكلاب التى تأكل لحوم البشر أرق قلباً من البشر . إن الديدان التى تأكل لحوم الكلاب أرق قلباً من البشر . .

ويقول أيضاً : إننى أفضل الصمت التام على أى كلام . . فالأشجار

والغابات هي أعز أصدقائي . إنني في بعض الأحيان أندهش لماذا خلقت الطبيعة للإنسان لساناً . لماذا لا تجعله يتكلم بيديه ، وبلا صوت . .

ليست هذه شكوى الرجل الذى صنع الانفجارات والضوضاء . . وإنما هي شكوى رجل رقيق جداً ، وأعصابه مرهقة . . بل هي شكوى الرجل الذى كره أباه ، وتعذب بسببه ومن أجله . .

إن ألفريد نوبل قد أعجب بالشاعر الإنجليزى شيلي إعجاباً لا نهاية له . بل إنه كان يحفظ شعر شيلي ، ويكتبه بكل اللغات التي يعرفها ، ويضعه في جيبه ، وكان ألفريد نوبل ينظم الشعر أيضاً . ومن الغريب جداً ، أنه أحب مسرحية للشاعر شيلي اسمها (بياتريس تشنشي) وهي مسرحية رجل يعذب أولاده تعذيباً شديداً . وتكاد تكون متعته الوحيدة في دموعهم وصراخهم . وقد مات اثنان من أبنائه . وجاء الدور على ابنته فقررت أن تتظلم إلى البابا . ووقفت أمام البابا تشكوه بالفعل ولكن الأب اتهمها بالجنون وهرب . . واتفقت الابنة مع خطيبها الراهب على قتل الأب وتآمرا عليه وقتلاه . ثم صدر الحكم البابوى بإعدام الابنة وأمها وإخوتها أيضاً . . وهي مسرحية مجنونة مخيفة . هذه المسرحية أعجب بها ألفريد نوبل . وكتب مسرحية أخرى شبيهة لها اسمها « اللغز » وفي هذه المسرحية لا يشكو فقط من وحشية الآباء ، أو من وحشية أن يكون الإنسان أباً قاسياً لأبناء في غاية الرقة ، ولكنه بكى على قلبه ، وعلى حبه الوحيد . .

* * *

وربما كان حبه الوحيد هو فتاة نمساوية اشتغلت سكرتيرته بعض الوقت . فعندما كان في النمسا . نشر إعلاناً في الصحف هذا نصه : «غني عجوز ، في حاجة إلى فتاة مثقفة لتعاونه في عمله» .. ولم يكن عجوزاً في ذلك الوقت . وإنما كان في الأربعين من عمره ، ولكنه شعر بأنه

عجوز جداً ، وأنه فى نهاية أيامه ، فقد ازدادت عليه وطأة الحالات العصبية التى كانت تهزه كأنه قنبلة يدوية توشك أن تنفجر .

وفوجئ بأن فتاة نمساوية قرأت الإعلان وتوجهت إليه على الفور ، وكانت الفتاة من أسرة نبيلة . ولكن مال عليها الزمن فلم يترك لها سوى ألقاب النبلاء . . وبعد سنوات من العمل مع ألفريد نوبل سألها فى يوم عما إذا كان قلبها خالياً ، أو كان مشغولا . وبصراحة أوجعته قالت : إن قلبها مشغول بحب أحد النبلاء . . وأن أهل هذا النبيل رفضوا زواجها به ، لأنها فقيرة . ونصحها ألفريد نوبل بأن تتزوج هذا النبيل . وسافر من فيينا إلى باريس . ومن باريس إلى السويد ، وفى أعماقه جرح هائل ، ظل ينزف حتى نهاية حياته .

وكتب إليها خطاباً يقول فيه : لقد فكرت فى كل شىء ، ولا يزال من رأيى أن تتزوجيه . تزوجيه وعيشى مع الرجل الذى تحبينه وأنا أستطيع أن أساعدك أيضاً .

ولكن أحداً لم يكن فى استطاعته أن يساعد الرجل الذى يتنقل بين السويد وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا ، يبنى المصانع ويحاسب على نصيبه من اختراع الديناميت ، ثم يتولى تصميم أصابع ديناميت جديدة . . ولكن عند ما يعود إلى نفسه فإنه ينظم الشعر ، ويكتب الصفحات الأولى من قصص ومسرحيات لم تنشر . . بل إن أهله رفضوا نشرها بعد وفاته ، مع أن أحد القساوسة قد قرأ هذه القصص ولم يتصور أبداً أن الذى كتبها رجل أجنبى ورجل كيميائى مثل ألفريد نوبل . .

وبعد أن غادر باريس هارباً إلى إحدى الغابات كتب خطاباً إلى من كانت سكرتيرته يقول فيه : لولا هذا الشىء الذى لا أعرفه لفضلت أن أموت ، ولكن فى داخلى قوة تمنعنى من الموت . إنك تعرفين أن أفكارى الدينية مختلفة عن معتقداتك . ولكن عند ما يتسع وقتى سأفكر فى الأمر .

ولم يتسع وقته ، ولم يفكر فى الأمر . ثم قابلها بعد ذلك هى وزوجها فى سويسرة وكانت مشغولة بالدعوة للسلام ، واشتركت ضمن لجان عديدة فى الدعوة إلى المحبة بين الناس ، ويبدو أن ألفريد نوبل قد تأثر بشخصيتها وبعقلها وبحبه لها . . فهى التى دفعته إلى أن يجعل للسلام جائزة ضمن وصيته . . وقد فازت هذه السكرتيرة بجائزة السلام سنة ١٩١٥ أى بعد وفاة ألفريد نوبل بأحد عشر عاماً . .

وقد عاش الفريد نوبل غريباً . فلا هو أقام فى السويد ، ولا هو كان يتكلم بلغة السويد ، وإنما كان يتكلم ويكتب بست لغات . . وكانت له بيوت فى معظم الدول الأوربية ، وعند ما قرر أن يستقر فى بلاده أقام بيتاً ولم يقدر له أن يعيش فيه يوماً واحداً . .

وهذا الرجل الذى اخترع الموت وباعه وكسب منه الملايين ، كان يخاف من الموت ، وكان يخاف أن يموت وحده ، وفى ذلك يقول ، وكأنه ريفى ساذج ، ولكن الموت يجعل الإنسان ريفياً ساذجاً . بل طفلا عاجزاً . يقول : أننى أخاف أن أموت وحدى . ألا أجد أحداً يهمس فى أذنى بكلمة ، أو يلمس يدى برفق . . أو يطبق عينى عند ما أموت .

والذى كان يخاف منه ألفريد نوبل . صاحب جائزة نوبل ، ومخترع الديناميت . قد حصل حرفياً . فقد مات نوبل فى الفيلا التى كان يملكها فى سان ريمو بإيطاليا يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٦ ، ولم يكن حوله إلا خدمه الفرنسيون ، وقبل أن يموت عجز عن الكلام نهائياً . وراح يضرب الجدران بيديه ويشير إلى الذين حوله بأن يبعثوا ببرقية إلى بعض الناس يخبرونهم أنه سيموت . . ولم يحدد طبعاً من هم هؤلاء الناس . ثم راح نوبل ينطق بكلمات لا أحد يعرف ما إذا كانت روسية أو ألمانية أو إسبانية . . ثم وضع يده على رأسه مرة وعلى قلبه مرة . . .

وسقط رأسه إلى الوراء . . ومن الغريب أنه هو بحركة لا شعورية ،

أو بما تبقى فيه من شعور ، مد يده وأقفل عيناً واحدة . وبقيت عينه الأخرى مفتوحة . .

وجاء أحد القساوسة وصلى على جثمانه . هذا القسيس فاز بجائزة نوبل للسلام بعد ذلك . . وعند ما انتقلت جثته إلى السويد ، انفجرت قنبلة أخرى . هذه القنبلة هو الذى أعدها واختار لها المكان والزمان . هذه القنبلة هى وصية أخرى ، وفى هذه الوصية يطلب أن يقوم الأطباء بكشف الغطاء عن جسده ، وإعادة فحصه من جديد . حتى لا يدفنوه حياً . . فقد مات أبوه قبل الأوان . لقد دفنوه حياً !

وعند ما كان نوبل يضع يده مرة على قلبه ، ومرة على عقله . . كان يعتذر لأحدهما بالنيابة عن الآخر . .

أو كان يقول أن قلبي حطمني . أما عقلي فقد حطم الملايين . .

أو كان يقول : أن الملايين التى كسبتها بعقلى ، تركتها بقلبى . . فقد كانت حياتى هى انتصاراً هائلاً لأحد العلماء ، وفشلا ذريعاً لأحد المحبين !

ولا يذكر الناس إلا العالم الذى اخترع . ولا يعرفون المحب الذى فشل . . . لا يعرفون إلا الرجل الذى عاش بأسلحة الموت ، وينسون الرجل الذى مات بالحب ! .

لا مشاكل . . لا أدب

عند ما صدر ديوانه الأول « قصائد من خشب » كتبت عنه مقالا طويلاً ، فى مجلة « الهلال » ووضعته بين أفراد الأسرة الثائرة على كل ما هو قديم . . فى أوربا وأمريكا . وتمنيت أن يصدر له ديوان آخر . أو قصة أخرى لكى أراه أوضح . وأسمعه أكثر . فقد أحسست أن فى هذا الشاب شيئاً جديداً . وأدركت العلاقة الرائعة التى تربطه بالحياة : إنها علاقة الفزع . . الفزع من الحياة ، وفزع الحياة منه . فهو يمد لها كل حواسه ، وهى تسحب منه كل معانيها . . وأيقنت أننى أمام شاعر صغير ، يدبدب بعواطفه فى دروب لبنان ، وشوارع بيروت ، ويضرب رأسه فى جدران بنوكها المليئة . وفنادقها الشامخة . ولم أكن أعرف أنه عند ما كان يمط شفتيه بين السطور . أن هذه حركة اشمئزاز عابرة ، ولكن عند ما عرفت الشاعر عن قرب ، تبينت أنه « يبصق على المعانى السلبية التى تدور فى أعماقه » . . كما يقول الشاعر أراجون . فلا شىء فى مدينة بيروت له صلة بلبنان ، فهى مدينة عجيبة . إنها مدينة تجارية «منزوعة العواطف» . . كل شىء فيها بيع وشراء .

وقبل أن ألتقى بشاعر القصائد الخشبية إبراهيم سلامة ، أرسل لى برقية من لبنان يحدد فيها موعداً للقائنا . فكانت البرقية فى ذاتها شيئاً غريباً . ورأيت الشاعر الصغير . وكانت شعراته السوداء ، كقصائده ، لا هى موزونة ولا هى مقفاة . . وإنما كانت أبياته تتدلى على جبهة صفحاته كشعره . وكنت قد نسيت الشاعر والديوان . . ولكنى بالأمس تذكرت فرحتى به وبهجتى بصوت يصرخ ، يعنى يثور ، بشاب يهبط

من الجبال يدق جدران المدينة إنه لن يحطم المدينة . ولكن يكفى أنه يحاول أن تردده بين المطعم والترام والجبل ، يشبه معنى حائراً . سخطاً عاماً يبحث عن أب يتبناه .

وجاء الشاعر الخشبي ورأيت شبابه الحائر . وقلقه الملتهب ونظراته التائهة . إنني أعرف هذا كله . إنني لست فى حاجة إلى أن أعرف اسمه أو بلده . إننى أعرف هذه المعانى . عشتها ، قرأتها ، احتضنتها . سهرت معها فى قصص الأدباء الشبان فى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وأسبانيا . .

وسألنى إبراهيم سلامة عن رأيى فى أدب لبنان . .

إننى لا أدعى العلم التام بكل ما تصدره المطابع النشيطة فى لبنان . . فهو طبعاً لا يقصد الكتب المترجمة ، وإن كانت الترجمة نفسها عملا يدل على ذوق المترجم وعلى موقفه . ولكن يبدو أن المترجم اللبنانى يترجم ما يريده المشترى خارج لبنان ، وليس فى لبنان . فهو ينتج للتصدير وليس للاستهلاك المحلى . أو بعبارة أخرى : الترجمة نوع من « التعليب » أو من التعبئة الجديدة . فالبضاعة تجىء على شكل كميات كبيرة ، ويقوم الناشر اللبنانى بوضعها فى صناديق لبنانية ، ويصدرها إلى الخارج . كالتفاح الذى يصلنا من لبنان .

أما إذا كان المقصود بأدب لبنان هو هذه الكتب الصغيرة أو القصص التى تظهر من حين إلى حين ، فلا أعرف من الذين يكتبونها ، ولا أين يعيشون . ولا ظروفهم النفسية والاجتماعية . . ولكنها على كل حال صرخات فى وديان عميقة مهجورة .

وفهمت من الأديب اللبنانى الصغير أن فى لبنان نوعين من الأدب : أدب الضيعة وأدب المصطبة . والضيعة هى القرية والمصطبة هى الترابيزة الموجودة فى عشرات البارات فى منطقة الروشة فى بيروت حيث يجلس أناس يتحدثون بالساعات ولا يكتبون حرفاً واحداً . وهم فى الغالب لا

يتحدثون اللغة العربية ، وليس من بينهم واحد استمع إلى أغنية عربية . أما الأدباء الصارخون فهم أبناء الضيعة . . أبناء القرى ، الذين يهبطون من الجبال ليلقوا نظرة ثم يعودوا إلى قراهم يلعنون هذه الحياة . . هذه البورصة المجنونة التي لا يهتم فيها أحد لا بالأدب ولا بالفن ولا بالحياة .. لا حياته هو ولا حياة أي انسان آخر .

وإذا حاول أديب من أبناء الضيعة أن يشغل نفسه بقضية سياسية أو أدبية . . ثار عليه أبناء المصاطب وطلبوا إليه أن « يدبر جيبته » . . أي يفكر في طريق لملء جيوبه بالفلوس . . وكثير من الشبان ترك التفكير في قضايا لبنان ، واشتغل بالتجارة ، لأن التجارة تدبر الجيب ، والأدب يخرب الجيب . !

وإذا صح أن الأدب صورة من المجتمع . . فلا شك أن بيع الثقافة وتعليبها وتحويلها ، كالعملات ، إلى البلاد الأخرى ، هو أهم علامات المجتمع اللبناني والثقافة اللبنانية . فبيروت تعتبر منطقة ترانزيت بالنسبة للآداب العالمية . فلبنان يشبه « الترانسفورمر » الذي يحول التيار العالمي إلى تيار عربي وبلهجة غريبة مرتجفة ، لا هي أوربية ولا هي عربية . . فالدقة لا تهم . ولكن السرعة هي التي تهم ، مع الأسف الشديد ! .

وهذه هي مشكلة الأدباء الشبان الذين ملوا الحياة في المدينة والذين يخافون من بيروت على كل لبنان . ويخافون على كل لبنان إذا هم تركوها ورقة من أوراق البورصة المجنونة . فمشكلة بيروت بصفة خاصة أنها ليست مجتمعاً بالمعنى الحقيقي . فكل الناس فيها متشابهون . . كأن بيروت يسكنها شخص واحد . له نصف مليون ظل . فهي مدينة مهجورة من الناس . ولكنها مليئة بأشباح الإنسان التاجر الذي يبيع بالنهار ، ويشترى بالليل . فلا يوجد مجتمع ، وإنما يوجد أناس معاً . . أفراد معاً . أشخاص فرادى في مدينة واحدة . فهم في مكان واحد ولكنهم ليسوا « مجتمعين » . .

وإنما هم « متجمعون » . . فعلاقاتهم « تجمعية » وليست « اجتماعية » . وعلى ذلك فهم بلا قضية ، بلا مشكلة .

وهنا تبدأ مشكلة الفنان أو المفكر : فهو أمام جماعة غريبة من مواطنيه . . أناس لا يرون المشاكل ، ولا يحسون بها . . ومهمته أن يضع أصابعهم على مشكلة الناس . أن يضعهم فى قلب المشكلة .

وما كتبته « ليلى عسيران » فى قصتها الأخيرة عند ما قارنت بين القاهرة وبيروت. فكان أهم ما لفت إحساسها أن مجتمع القاهرة حى حار .. له تخطيط . وأن فى القاهرة جهوداً هائلة صادقة نحو دفع المجتمع إلى الأمام . . مجتمع يبنى مستقبله . . كأن أفراده فرقة موسيقية واحدة . . كل واحد يعزف على آلة مختلفة ، ولكن اللحن واحد . . بينما مجتمع بيروت. أو بيروت وبقية لبنان ممزق.. بلا هدف واضح. أو بلا هدف ، أوله هدف هو : جمع الفلوس فقط ! . .

وكلما رنت الفلوس فى بيروت — صرخ الأدباء الشبان الصغار الضائعون فى وديان الجبال . فهم لا يملكون إلا الصراخ . . كصراخ الطفل عند مولده . . لا بد أن يصرخ ، وإذا لم يصرخ فإن الطبيب يدفعه إلى الصراخ . وكلما كبر الطفل اتخذ صراخه شكلا واعياً مثل الكلام والكتابة والخطابة . . وكل ما ينقص الشبان فى لبنان هو أن يتلمسوا المشاكل وأن يلتفوا حولها ، وأن يصرخوا معاً . فإذا لم يكن هناك مجتمع ، فى استطاعتهم أن يخلقوا مجتمع الصارخين . . وحينئذ يظهر مجتمع آخر هو مجتمع الخائفين من الصراخ . وهذه هى بداية المشكلة . صراخ . ولا صراخ يتبدد فى الوديان أو فى الجبال . . وعلى الأدباء الشبان أن يعطوا الناس للناس . . أن يكلموا الناس عن الناس ، وعن متاعب الناس .

وإذا أحس الأديب أو المفكر أو الفنان أن مجتمعه بلا مشكلة . كان انعدام المشاكل هو مشكلته الحقيقية الأساسية .

وتوقفت المناقشة فجأة بيننا كأنها تحولت من خيوط إلى خشب . . ومددت يدى ومد يده ، وتمنيت له المزيد من المشاكل ، وللأدباء المزيد من العقد . فمن هذه العقد الأدبية الإنسانية ، يستطيع الفنان أن ينسج مجتمعه الجديد . . ينسجه أبناء الضياع لا أبناء المصاطب . ليلحقوا الطابور الطويل الزاحف نحو تحقيق الأسرة العربية الكبيرة .

أنت متعة لجيرانك . . ولكنك لا تدرى !

ما الذى يمكن أن تفعله إذا نهضت زوجتك ، بكل هدوء ، وضربتك قلماً على خدك الأيمن ، وقبل أن تدير لها الأيسر ، أو تخفى عنها الأيمن ، أو تغيب فى ذهول من هول هذه المفاجأة ، ينفتح الباب وتدخل ابنتك ووراءها زوجها — لاحظ أنهما عروسان من أيام فقط — والدموع التى فى عينيها تجعلك تنسى ما أصابك . . وستنسى ما أصابك تماماً عند ما تبدأ ابنتك تروى مصيبتها مع زوجها ، فقد اختلفت معه وعند ما كانت فى حالة دفاع عن نفسها ضربت زوجها قلماً ، وجاء هذا القلم على قفاه . مع أنها تقصد أن يكون على خده الأيمن . ولن يكون فى استطاعتك أن تضحك لهذا الاعتذار الذى ساقته ابنتك . . وهى تعتذر طبعاً عن أنها أساءت إصابة الهدف. والسبب هو إضطرابها الشديد وإقدامها على عمل لم تكن تتصوره مطلقاً . خصوصاً أنها تزوجت عن حب . وأنها تحدت الأب والأم والعائلة كلها بهذا الزواج . . إلخ .

وهنا يدخل زوج ابنتك ويؤكد لك أنه كان فى استطاعته أن يقبل هذه الصفعة لو لم تكن أمام الخادمة التى تنقل الأخبار كلها إلى البواب .. ويتولى البواب توزيع هذه الأخبار بالعدل على كل سكان العمارة والعمارات القريبة . منها . . وهذا البواب يروى هذه الأخبار وغيرها إلى البوابين والطهاة والسفرجية . . وكلهم حريصون على أن يكونوا عادلين فى تشنيعهم على « السادة » . . أو فى الانتقام منهم بهذه القصص الفاضحة . . فهذه الفضائح عبارة عن ثقوب فى قاع السفينة يجعلها تمتلئ بالماء ، وتهبط

قليلا . . فكل فضيحة هى محاولة لإغراق سفينة أحد ، . . أو تمزيق حياة إنسان — ولا بد أن إغراق السفن وتمزيق حياة أى إنسان هى متعة البواب والخادم. متعة الخادم وهو يتلذذ بعذاب سيده . .

وأحب أن أقول لك إن بواب العمارة التى تسكن فيها مشهور لدى البوابين ومحبوب عندهم ، لأنه صاحب أكبر مجموعة من القصص المثيرة .. ولكى يصبح موقفك أصعب وأعقد ، أقول لك إن هذه القصص المثيرة هى قصصك مع زوجتك وخناقاتك معها . فأنت الآن تستطيع أن تعرف أنك عنصر هام جداً لكل المنطقة . . فعن طريق عيوبك وإهاناتك المتكررة ، يشعر كل زوج أنه محترم . وتشعر كل زوجة أنها مؤدبة . وأن كل إنسان أحسن منك ، وأسمى منك ، وأنك الحد الأدنى لكل شىء أنت الصفر . . والناس كلهم أرقام . . أنت خط جرينتش والناس كلهم تتحدد أماكنهم شرقاً وغرباً بالنسبة لك . . أنت مستوى سطح البحر . . والناس كلهم أعلى من مستوى البحر . . أو تحت مستوى سطح البحر . . وهم فى الغالب فوق مستواك أنت وزوجتك .

وكل هؤلاء الناس عندما يريدون أن يتسلوا كل ليلة ، فإنهم يروون قصصك . . يتندرون بها ، يسألون الخادمة المزيد من حكاياتك . .

وإحساس الخادمة بأنها تقوم بدور الشخصية المسلية .. الشخصية التى تملأ البيت مرحاً وبهجة ، يجعلها تتحول من مجرد واحدة تروى قصصاً عن البواب ، إلى مؤلفة . .

فأنت بفضل ما أصابك أنت وزوجتك قد حولت كل المنطقة إلى عيون تتفرج عليك وأنت لا تراهم . . إلى آذان تطيل الاستماع إليك وأنت لا تدرى . . فأنت قطعة من القماش يفصلها الناس على هواهم . . كل واحد يفصلها بالشكل الذى يريحه ، وبالشكل الذى يجعله أكثر احتراماً وأكثر وقاراً . . أنت الرجل الذى لا يريد أحد أن يكون مثله . . أنت

البقعة السوداء التي تبدو إلى جوارها كل البقع سمراء أو صفراء أو حمراء.
كل هذا وأنت لا تدرى . .

وقبل أن تجيب عن هذا السؤال الطويل أعود فأتوجه إليك بسؤال آخر هو : وماذا يكون موقفك إذا كانت ابنتك هذه قد سمعت كل ما دار بينك وبين زوجتك ، إلى أن نزلت يد زوجتك ناراً على خدك . . ثم إنك فى ذهولك لما حدث قد نسيت ، أو لم تشعر بأن زوجتك قد صفعتك على خدك الآخر . . وفى ذهولك لما حدث للمرة الثانية . قد دخلت ابنتك وصفعت أمها قلماً . . وسقطت الأم بين ذراعى زوج ابنتها ؟

انتهت أسئلتى . وقبل أن أطلب رأيك ، أؤكد لك أن هذا الذى أريد أن أضحك فيه ، لكى تحس به ، وتدلنى على الطريقة التى يمكنك أن تتصرف بها لو حدث هذا ، ليس لغزاً ولا فزورة . وأنه حدث . ومن الممكن أن يحدث مرة أخرى . . وأننى لا أعرف بالضبط أين الغلط . أو أننى أعرف أين الغلط . ولكن لا أعرف من هو الغلطان أكثر . هل ترى أن البنت التى ضربت أمها غلطانة ؟ . . إذا كان هذا رأيك فمعك حق . فمن الناحية الأخلاقية يجب ألا تضرب ابنة أمها . وإذا حدث كان شيئاً غريباً . ولكن كونه غريباً ، ليس معناه أنه لا يحدث . وإذا قلت إن الزوجة لا يصح أيضاً أن تضرب زوجها . فقد تكون على حق . لأنه من الممكن أن تضرب الزوجة زوجها . وليس غريباً أن يقبل زوج من زوجته أن تضربه . فالمسافة التى بين الزوجة والزوج ليست كالمسافة التى بين الابنة والأم .

وإذا قلت مثلا إن هذا الموقف الغريب يؤكد قانون الوراثة ، وكنت تقصد من وراء ذلك أن البنت « طالعة » لأمها . . وأنها ضربت زوجها وضربت أمها أيضاً . فأنا لست من رأيك . فقانون الوراثة لا يظهر فى هذه التصرفات التافهة ، كضرب القلم أو الشلوت . . وإنما يظهر فى تصرفات

أعمق وأعقد . . مثل التنكيد على الزوج ومثل تعميق الشعور بالندم على أن هذا الزوج قد اختارها دون كل البنات . ومثل الحرص على أن يكون البيت جهنم ، تماماً كما فعلت أمها . . وكما فعلت أم الجميع حواء ، عندما أنزلت آدم من السماء إلى الأرض . . إلى جهنم !

وإذا قلت إن هذا الموقف من أوله لآخره غير معقول . فليس معنى ذلك أنك لا تستطيع أن تتصوره . فليس أسهل من تصوير يد تمتد وتنزل مع جاذبية الأرض ، وتحدث دوياً على خد ، وتتطاير شظايا الانفجار فى العين وفى طبلة الأذن . . فالعقل يستطيع أن يتصور أن أى يد من الممكن أن تنزل على أى خد . والعقل أيضاً يتصور أن الابنة من الممكن أن تصفع أمها وغير أمها . ولكن الضمير هو الذى يرفض هذا التصوير .

وإذا قلت إن هذا لا يحدث إلا فى المسرحيات أو فى الأفلام ، وحتى إذا حدث ، فالرقابة فى الدنيا كلها تمنع الأبناء من ضرب أبائهم ، وهذا موقف عظيم من الرقابة تحمى به القيم الأخلاقية فى أى مجتمع .

ولكن مجرد القول بأن هذا لا يحدث إلا فى المسرحيات أو القصص معناه أن هذا الموقف خيالى . ومعناه أنك ترى أن هناك عالمين : عالم الواقع وعالم الخيال . وأنهما منفصلان . وعيب هذا الرأى هو أنه يفصل بين الواقع والخيال ، مع أن فى الواقع مواقف أغرب من الخيال . ومع أن الواقع هو البنك الذى يمول الأدب والفن . . والواقع هو القماش الذى يفصل منه الفنان كل البدل والفساتين التى نراها على المسرح . .

وإذا عرفت أن هذا الموقف هو مسرحية كاملة كتبها الأديب الإيطالى البرتو مورافيا ، فلك أن تسأل وما هو المعنى المقصود من زوجة تضرب زوجها أو ابنة تضرب أمها ، وكانت قبل ذلك قد ضربت زوجها أيضاً . .

ربما كان المعنى هو أن القلم الذى تضربه الزوجة لزوجها له معنى مختلف عن القلم الذى ضربته الابنة لأمها . . أو الابنة لعريسها . مع أن

القلم واحد . . واليد التي ضربت العريس وضربت الأم واحدة ؟

وربما كان المعنى أن العريس هو الشخص الوحيد الذى شهد مجموعة من الفضائح جعلته يشعر بالتشفى . . وجعلته يشعر بأنه قد ثار لكل ما أصابه . . فهو رأى الأب وهو فى حالة هوان ورأى الأم . . ورأى احتقار الأب والأم . . لابنتهما فى الوقت نفسه . . لقد رأى العريس كيف أن الأب الجريح قد اتفق مع زوجته التي جرحته فى احتقار واحد . هو احتقار لابنتهما . . ثم كيف أن العريس قد أحس فى نفس الوقت بالندم على أنه اختار زوجة تضرب أمها ، وتضرب أباها فى نفس الوقت ..

إن البرتو مورافيا قد انتقم للجميع وانتقم منهم أيضاً . .

فقد خرج العريس واستدعى بواب العمارة وفتح له الباب وأوقفه بالقوة أمام الأب والأم والعروس وروى له كل ما حدث .. واعترفت العروس أن عريسها هذا من أحط الناس فهو لم يتزوجها لأنه يحبها ولكنه تزوجها لما علم أن أباها مريض بمرض قاتل وأنه سيموت قريباً وأنها هى الوارثة الوحيدة له . . وأنه قد فعل ذلك مع فتاة أخرى قبلها .

وأما بواب العمارة ففضح هؤلاء الأربعة أنفسهم . . .

وليس من الضرورى أن يخرج البواب . .

وليس من الضرورى أن يقفل الباب وراءه إذا خرج ، وأن ينزل الستار معلناً نهاية مسرحية البرتو مورافيا . .

فالمسرحية قد انتهت بمجرد دخول البواب ومشاهدته وسماعه الاعترافات الأربعة المفضوحين . . الفاضحين لأنفسهم !

وقبل أن يخرج البواب يعترف الأب بأنه لم يكن مغمى عليه من هول المفاجأة وإنما كان يتظاهر بذلك ، لكى يدخل السعادة على قلب الزوجة . فهى تتوقع موته بين لحظة وأخرى لكى تتزوج رجلا آخر . . فكان الزوج يقبل الضرب ما دام يدخل السعادة على قلب الزوجة ويغيظها فى

نفس الوقت . . ويقبله دون أن يدافع عن نفسه .. ولا بد أن هذا الأب قد تضايق من ابنته التي قد ضربت أمها ، لأنه يريد أن ينفرد بإغاظة زوجته . . ولأنه فى نفس الوقت يريد أن يرى زوجته فى المركز الأقوى .. فى مكانة الرجل . . فى مكانة السيد !

وربما كان المعنى أيضاً الذى يقصد إليه المؤلف هو أن كشف فضائح السادة أو الكبار أو أصحاب العمل أو أصحاب البيوت هو الفرصة الوحيدة لتذويب الجليد الذى يفصل بين السادة والخدم ، أو بين الناس الذين يسكنون فوق ، وبين الناس الذين يجلسون تحت ، ويعملون تحت وينظرون ويسمعون من تحت لتحت . .

سؤال أخير : هل تفضل أن تكون واحداً من هؤلاء الأربعة ؟ . أى هؤلاء الأربعة ؟ معظم الناس يفضل أن يكون البواب . .

أنا شخصياً أفضل أن أكون المؤلف ! .

الجنون : ينبوع الفن !

هذه هي حكاية شاعر لم يستطع أن يعقد صلحاً بين عالمين : عالم الواقع وعالم الخيال . فالمفروض أن يذهب الشاعر من حين إلى حين إلى عالم الخيال ، ويعود لنا بعد ذلك يروى ما شاهد هناك . يروى لنا بالعقل ما رآه وهو حالم وهو فى شبه غيبوبة . . وظل هذا الشاعر يعبر الأسلاك الشائكة بين العالمين ٣٣ عاماً . ثم طالب بحق الالتجاء فأعطى له فأقام ٤٠ سنة أخرى مجنوناً تماماً حتى مات سنة ١٨٤٣ . . لقد حاول أن يوفق بين عالمين . أن يهدىء الصراع العنيف بينهما . فاستسلم لأحدهما وانتهت حياته بأن أعطى عقله لعالم الخيال ، أما جسمه فظل ينقله الناس من بيت نجار إلى بيت حداد ، إلى بيت قسيس . . حتى استقر فى هذا البيت الصغير الذى ذهبنا لزيارته من عشر سنوات . والبيت لونه بنى أسود . وبابه قاتم اللون . يلمع فيه مقبض به صدأ . ولا شيء فى مدخل هذا البيت يدل على أن أمير شعراء ألمانيا كان يقيم فيه . وبأطراف أصابعنا لمسناه . فانفتح بالقدر الذى سمح بشيء عفن سد أنوفنا . ولم نعرف بالضبط هل كانت هذه العفونة هى أفكار العجوز التى توارت خلف الباب ، أو بقايا طعام لم ينضج . أو هو نفس الهواء الذى كان يشمه الشاعر من مائة سنة ، أو أنها هى رائحة الماء الراكد تحت نافذته . . أو كانت هذه الرائحة سببها أننا فقأنا ثمرة ميتة . هذه الثمرة الميتة هى هذا الهدوء الذى يغمر الغرفة الصغيرة التى قرر فيها الشاعر أن يلتجىء إلى العالم الآخر . والغرفة خانقة . أو هكذا تصورناها . لها نافذة تطل على نهر

النكر . ما تزال الغرفة تطل من نافذة مفتوحة على النهر . وكأن النافذة عين مفتوحة . ولكنها لاترى . . فهى عين بلا إنسان . وما تزال « حديقة التأوهات » على الجانب الآخر من النهر . ولا يزال طلبة الجامعة يتأوهون تحت أشجارها . ومعظم هؤلاء الطلبة لا يعرف إلا القليل جداً عن الشاعر هيلدرلن . أمير شعراء ألمانيا . .

وانحشرنا فى داخل الغرفة الصغيرة . . وكان دخولنا هكذا : أنا والدكاترة : مراد كامل ، وحسن عثمان ، وإبراهيم الدسوقى . والترتيب حسب أهمية الشاعر لنا . ولم نلاحظ على البيانو الموجود فى الغرفة آثار ضربات يدى الشاعر أو قدميه . ولم نلاحظ على الجدران آثار أظافره . ولم نجد فى الأرض تلك الفتحات التى كان يحاول أن يعمقها لكى يصل عن طريقها إلى آلهة الشعر . ولا بد أن مصلحة الآثار التى لم تضع لوحة على باب البيت . قد سدت هذه الفتحات كلها . وتحت آثار رجل فقير عاش معذباً ومات غامضاً .

وفشل فى أن يكون ذلك « الوعاء السماوى الذى يحتفظ بنبيذ الحياة ودماء الأبطال » . . فلا عرف النبيذ ، ولا ذاق البطولة وإنما كانت بطولته الوحيدة هى أنه قرر أن يموت منذ اللحظة الأولى لحياته . فأعطى نفسه للشعر ! .

ومنذ أيام أصدر الدكتور عثمان أمين كتاباً صغيراً بعنوان « فى الفلسفة والشعر » فيه محاضرة ألقاها الفيلسوف الوجودى هيدجر عن هذا الشاعر . وهو فى هذه المحاضرة يشير إلى أن الشاعر يعتبر من أعظم شعراء ألمانيا وأهمهم أيضاً وأكثرهم فهماً لطبيعة الشعر . والمحاضرة مركزة جداً . أو هى مشروع لمحاضرة . وتحتاج إلى دراسة . والأصل الألمانى غامض . والترجمة العربية غامضة أيضاً . خصوصاً إذا عرفت أن الدكتور عثمان أمين ، مثل هيدجر ، يستخدم مصطلحات شخصية لا يعرفها كل الناس . وبذلك جاءت هذه المحاضرة نتيجة معقولة جداً لرجل عاش غامضاً

ومات أكثر غموضاً . وعند ما حاول الناس فهمه غرقوا فى بحاره المظلمة !

ومن الممكن أن تقرأ له قصائد طويلة جداً . ولا تعرف أين هى عبقريته . وربما كانت عبقريته فى اللغة الألمانية نفسها . فى التراكيب اللغوية والبلاغية التى يلجأ إليها . ولكن الفيلسوف هيدجر يعتقد أن هذا الرجل هو الوحيد بين الشعراء الألمان الذى فهم جوهر الشعر . فعند ما قال الشاعر : إن الإنسان ليس إلا حواراً . . وعندما قال : إن الشعر هو أكثر الهموم الإنسانية براءة . . وعند ما قال : ولكن الشعر يعتمد على أكثر الأشياء خطورة وهى اللغة . . عند ما التقط هيدجر هذه الأبيات استطاع أن يكون منها مفهوماً هاماً للشعر : وهو أن الشعر أحد الهموم الصافية التى تستغرق الإنسان . . ولكن الشعر هموم تجمع بين اللعب والجد . فهو لعب لأنه خيال فى خيال . وهو جاد لأن للخيال قوالب وقواعد وموسيقى موزونة . والشعر يعتمد على سلاح خطر وهو اللغة . فاللغة هى الوسيلة التى تربط بين الشاعر والناس . . واللغة لا بد أن تكون على شكل حوار بين الشاعر ونفسه وبين الشاعر والناس . وبين الواقع والخيال . والإنسان والآلهة وحدهم هم الذين يتكلمون . والآلهة علموا الإنسان الكلام . علموه أسماء الأشياء . هذا هو جوهر الشعر .

وإذا كانت حياة أى إنسان تتشكل بالجو الفنى الذى يسود المجتمع الذى يعيش فيه . فإن الفنانين أكثر حساسية لهذا الجو . فالفنان إما أن يطفو على وجه المجتمع . أو يقاوم تياره . وقد حاول هذا الشاعر أن يطفو . . وفشل . حاول أن يقاوم التيار . ثم هرب من التيار . إنه لم يستسلم . ولكن اكتفى بالهرب الذى كان أسوأ من الاستسلام . حاول الشاعر أن ينشر فنه فلم يجد أحداً . وحاول أن يرفع رأسه فى زحام الرءوس ولكن أحداً لم يره . عند ما مات أبوه أحس أن أمه أيضاً قد ماتت . وعند ما تزوجت أمه للمرة الثانية أحس بنفس الصدمة التى أحسها من قبل الشاعر بودلير

والفيلسوف سارتر ، لقد أحس أن أمه ماتت فعلا . وأن كل ما يربطه بها هو الصلاة على روحها .

* * *

فقرر الشاعر أن يقفل بابه . أن ينعزل . وأن يدفن رأسه فى ترجمة الأدب اليونانى القديم . وأن يعتقل أفكاره على مداخل الكهوف فى الأساطير اليونانية . وعند ما قرر أن يهرب من ألمانيا كلها قال فى قصيدة له : « إنهم وحوش . شعب ليس فيهم بشر . إنهم ليسوا إلا مجموعة من الأيدى والأرجل تجاورت بلا أجسام . كما تتجاور أشلاء القتلى فى ميدان الحرب . بلا إنسانية . الدماء جفت .. الأنفاس أخرست . القلوب جمدت .. بلا حياة فلا حياة معهم . ولا حياة بينهم .. » وكان يقول أيضاً : « كل شىء حولى يرفضنى . مع أننى لم أفتح فمى .. كل شىء حولى ينكرنى مع أننى لم أجهر برسالتى بعد . كل شىء جامد كالجليد . ولكنى أستطيع أن أدفئ نفسى . إن العباقرة وحدهم هم الذين يجدون الدفء فى وجه العاصفة » . .

وفى المرة الوحيدة التى حاول أن يرتبط بالناس وجد سيدة غنية . رأى فيها الأم . أو رأى فيها بديلا عن أمه . فأحبها . وتوهم أنها هى أيضاً تحبه . مع أن الذى سماه حباً . لم يكن إلا اشفاقاً . ولم يدرك إلا فى سن متأخرة جداً . أن حبه كان صورة أخرى من صور وهمية فكتب يقول : « كلما زاد عدد الخيول فى العربة ، ازدادت اهتزازاً . . كلما زاد عدد الغرف فى القصر ، زادت الأبواب والنوافذ التى نحبس أنفسنا وراءها ، وزاد عدد الخدم الذين نهرب منهم . لقد رأيت وعانيت وتعذبت . وأنا الآن أقفل بابى الوحيد . وأشد ثوبى الوحيد . وألتوى حول نفسى ، أمتص دموعى ، وأبصق جوهرى فى عزلتى . لا حياة لى هنا ! » .

ويقول لنفسه أيضاً : « بالذوق بالقوة سأوقظ نفسى . . سأحطم

مشاعرى النائمة . سأصحو إلى الأبد . سأقف إلى جوار هؤلاء الذين ناموا على عروش المجد الأدبى بلا مبرر . . سأصرخ حتى أنزعج . سأنزعج حتى أموت . سأموت حتى أتطهر . لا بد أن أكون كما أرادت مواهبى . لا بد . . » .

ومنذ عشر سنوات عند ما ذهبت إلى مدينة تينبجن بألمانيا ، حيث عاش الشاعر ومات عرفت أن الفيلسوف هيدجر يسكن بالقرب منها وحاولت أن أتصل به ولم أجد إلا أخاه . وأخبرنى أخوه أن الفيلسوف عريس . وأنه هو وزوجته فى أعالى الجبال . وسألت عن رجل آخر تخصص فى دراسة هذا الشاعر . وقابلت ابنته التى تعمل بائعة للكتب . فأخبرتنى أن والدها مريض وأنها حدثته عن رغبتى فى مقابلته فوعد بعد أن يتم شفاؤه . ولما قرأت قصائد الشاعر بعد ذلك أدركت أنه فى استطاعتى أن أفهم الشاعر دون حاجة إلى معونة من أحد . ففلسفة الشاعر واضحة وهى لا تخفى على أى إنسان له دراية بالفلسفة الألمانية . فهو مثالى ، كمعظم الفلاسفة الألمان . قد تعلق فى السماء من رأسه . أما رجلاه فهما فوق هذا العالم الواقعى . ولكنه فى سمائه العالية . يلقى علينا بين الحين والحين ، عبارات جميلة عميقة . وهو يقول عن نفسه : «إننى فوق . إننى على خلاف الناس جميعاً . أضع أعماقى فى السماء . إنهم جميعاً يهبطون إلى الأعماق . أما أنا فأصعد إليها ! »

وحتى بعد وفاة الشاعر . وحتى فى ألمانيا ، ورغم كثرة العباقرة والفلاسفة الذين عرفوه ، لم ينشر عنه إلا القليل جداً . وإن كان الشاعر قد أثار اهتمامات أصحاب الأذواق الغريبة فى الفن . فالممثلة الفرنسية سارة برنار ترجمت له بعض قصائده ! والقائد الإنجليزى مونتجومرى قد ألف عنه كتاباً ! والرسام بيكاسو رسم له لوحة مستوحاة من إحدى قصائده !

وعلى الرغم من أن الشاعر مات وعمره ٧٣ عاماً . فإنه مات «فنياً» فى

الثالثة والثلاثين من عمره . لقد سبقه إلى هذا الموت عدد كبير من الشعراء المرهفين ذوى الحساسية الأليمة . فالشاعر لوتريومون مات فى الرابعة والعشرين والألمانى نوفالس فى التاسعة والعشرين وشيلى فى الثلاثين و بيرون فى السادسة والثلاثين . والشاعر رامبو مات فى السابعة والثلاثين ، ولكنه توقف عن نظم الشعر وهو فى الواحدة والعشرين !

كلهم كانوا كالنجوم لا بد أن يحترقوا بشدة و بسرعة ، لكى يراهم الناس بعد ذلك !

وجاءت الدراسة الطويلة لحياة الشاعر الغامض تؤكد أن المرض الذى أصابه . والذى راح ضحيته ليس إلا مرض كل الفنانين لو زادت حساسيتهم ، أو فشلت جهودهم فى التوفيق بين عالم الواقع وعالم الخيال ، بين عالم الناس . وعالم البرج العاجى . . هذا المرض هو انفصال الشخصية .

وكما يحدث أن الممثل على المسرح « يندمج » فى دوره ، أى فى القيام بدور شخصية أخرى فيتحرك مثلها . ويتكلم مثلها . وينسى شخصيته هو تماماً ، ونصفق له لأنه نسى شخصيته هو ، فكذلك الفنان يندمج فى عالمه الآخر . ويستغرقه هذا العالم الآخر حتى ينسى من هو . والفنان العاقل هو الذى يندمج فى دوره ، ثم يعود إلى ملابسه . إلى نفسه . إلى شخصيته ، إلى اسمه . إلى صورته وعنوانه المكتوب فى البطاقة الشخصية .

وما حدث للشاعر هيلدرلن هو أنه اندمج فى دوره الخيالى .. حتى انفصل عن نفسه ، عن حقيقته . تماماً كما ينزل الممثل من فوق خشبة المسرح ويعود إلى البيت بملابس التمثيل ويتكلم فى البيت ، كما تتكلم الشخصية التى كان يؤدى دورها على المسرح .. فلا يجد فى البيت أو فى الشارع نفس الأشخاص الذين كانوا معه على المسرح . ولا نفس اللغة ، ولا نفس الوقت الذى صنعه خيال المؤلف . . فيصطدم بالواقع . ولكن الواقع لا يوقظه . فيهرب من جديد إلى المسرح ويعيش فيه وينام على

خشبته ويموت في ملابسه الوهمية . وهذا هو الجنون ! . .

ولكن هذا « الاندماج » المجنون هو الذي أخرج لنا روائع الفن . ولولا هذا الاندماج المؤقت . ما كان في تاريخ الإنسانية بيت واحد من الشعر ولا لحظة واحدة من الموسيقى . ولا بقعة واحدة من اللون . . أن هذا المرض هو الذي ندين له بكل الفنون التي نستمتع بها . .

إن الفنان يشبه الحيوان الذي يفرز اللؤلؤ في البحر . . فحيوان اللؤلؤ يعيش في قوقعة . . هذه القوقعة تشبه البرج العاجي . ويحدث أن تتسلل إلى القوقعة ذرة من الرمل . هذه الذرة تؤذي الحيوان الصغير فيلتهب جسمه الرقيق . ثم ينسحب الحيوان إلى مكان أمين في أعماق البحر ويروح يفرز على ذرة الرمل هذه المادة اللامعة الجميلة التي نسميها باللؤلؤ . فاللؤلؤ ليس إلا محاولة من الفنان لعزل جسمه عن هذه الذرة المؤلمة . فاللؤلؤ ليس إلا دموع الفنان في ثلاث أو أربع سنوات . ونحن نرى اللؤلؤ ونبيعه ونشتريه ونلمحه على صدور النساء ، وننسى أن هذه الحبات هي دموع الألم لفنان رقيق حاول أن يدفع عن نفسه الأذى . . فعاش في سلام وغاص في الأعماق وفي الوحدة الأليمة ، يذرف هذه الدموع اللؤلؤية ! .

مجهول يفوز بنوبل . .

يا أولاد الحلال . . هل يوجد بينكم واحد يعرف أين مكان رجل يونانى متوسط القامة ، أصلع الرأس ، جاد الملامح ، مولود فى أزمير بتركيا وفى السابعة من عمره سافر إلى أثينا . ومن أثينا إلى باريس ، وتحت ضغط النازى هرب إلى كريت ، ومن كريت إلى مصر ، ومن مصر إلى سوريا ولبنان ثم عاد إلى باريس ، وعمل سفيراً لبلاده فى بريطانيا حتى اعتزل السلك الدبلوماسى فى العام الماضى ، ويقال إنه اختفى فى فيلا صغيرة بالقرب من أثينا ؟

يا أولاد الحلال . . ألم يسمع واحد منكم عن هذا الرجل الذى اسمه جورجاى سفير يادس والشهير باسم جورج سفيريس . . يقولون إنه شاعر والذين يعرفونه يقولون : بل شاعر عظيم . وإنتاجه قليل . ولكن معظم أعماله ترجمات للشاعر اليوت وللشاعر لورانس دريل . ومعنى ذلك أن الترجمة فى بعض الأحيان تبلغ نفس الدرجة والروعة كالتأليف . . !

لم أجد كتاباً واحداً عن هذا الرجل اليونانى الذى فاز بجائزة نوبل للأدب هذا العام . لم أجد واحداً يعرف اسمه ، أو صادف أن قرأ اسمه . أو حتى تصور أن لليونان شاعراً آخر غير المرحوم كازانتزاكس مؤلف قصة « الفتى زوربا » و « إعادة صلب المسيح » . . والذى مات كمداً لأنه لم يفز بهذه الجائزة التى ترشح لها ست مرات !

وعدت إلى دوائر المعارف . . ولم أجد شيئاً عنه فى الدوائر ولا القواميس التى عندى . وأخيراً عثرت على بعض أبيات من ديوانه الأول

الذى نشره سنة ١٩٣١ بعنوان « نقطة تحول » .. و بعض المقالات القصيرة والتعليقات الموجزة .

لقد نقلت وكالات الأنباء أسماء دواوينه والكتب التى ترجمها . وليس من بينها واحد فى المكتبات العامة أو الخاصة . ونحن اليوم نعيش على أمل أن تصلنا مؤلفاته فى العام القادم .

إن أبناء اليونان فى أفراح متواصلة . . الذين يفهمون فى الشعر ، والذين لا يعرفون سفيريس . لقد عاش اليونان على أنه شعب له ماض فقط . . وليس له حاضر . والمستقبل ابن الحاضر . فلا مستقبل لهم أيضاً . وقد كان من أبنائهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وهوميروس . . فقط . هذه أهراماتهم الفلسفية الأربعة . وقد باعوا هذه الأهرامات ألوف السنين ، بملايين الجنيهات لكل الناس . وتأثر بهم العالم كله ، ولا يزال . ولكن ليس فى حاضرهم أحد من وزن هؤلاء العظماء إلى أن منحت جائزة نوبل لشاعرهم سفيريس . . فشعر أبناء اليونان بأن معجزة قد حدثت . تماماً كأن الأمم المتحدة قد طلبت منهم مليون جرسون ليعملوا فى كل مطاعم الدنيا . . كأن جزر اليونان الجافة المهجورة قد تحولت إلى وديان خضراء بها أشجار عنب . . والأشجار لها أوراق ، والأوراق فلوس . والثمار لؤلؤ ، والندى قطرات نبيذ . . أو كان هوميروس قد بعث من قبره ليروى للجيل الجديد أسطورة الرجل الذى عاش صغيراً مهذباً صامتاً . يخفى ثورة تحت ملابسه ولا يكشف إلا عن ابتسامة رسمية ، ثم فاز بجائزة نوبل فى الشعر ! . .

* * *

إننا تعودنا الآن على مفاجآت الأكاديمية السويدية التى تختار الفائزين بجائزة نوبل . . فى كل عام تختار فناناً لا يعرفه إلا عدد قليل من الناس . . لقد اختارت الشاعر الإيطالى كوازيمودو . . واختارت الشاعر الفرنسى سان جون برس ، واختارت الأديب الأيسلندى لاكسنيس . . ولم تختر

واحداً من أعلام الأدب والفلسفه . . لقد أصبح شيئاً مألوفاً جداً أن نجد أسماء غير مألوفة لتفوز بهذه الجائزة الكبرى .

وقالت صحيفة التايمز فى لندن إن الذى يقرأ ما ترجمه الشاعر اليونانى يلمح صدق المترجم . وشاعريته العظيمة . وليس هذا غريباً فهو حفيد الحضارة اليونانية العظيمة الغنية بكل شىء . . والتى أشاعت الحياة فى الحجر والشجر والماء والهواء والسماء . . فهى حضارة فيها كل شىء حى .

وقالت نيويورك تايمز : لم نفاجأ بفوز الشاعر اليونانى سفيريس بهذه الجائزة . فهو أشبه بالأنهار الجوفية . . إنه يتحرك بعيداً عن العيون ، عميقاً ثابتاً غنياً ، ثم لا يلبث من تلقاء نفسه أن يعلو على شكل نافورة من الماء الصافى المتدفق ، والذى يعرف طبيعة الأنهار الجوفية لا تدهشه النافورة والذى يفهم النافورة ليس فى حاجة إلى أن يعرف المياه الجوفية . . إن هذه الجائزة هى تحية عظيمة ، ولكنها متواضعة . إنها دين فى عنق الحضارة الحديثة ، للحضارة اليونانية القديمة . فليشكر الشاعر أهله ، أو ليشكر أبناء اليونان شاعرهم . . أما نحن فقد تعلمنا على يد هوميروس القديم ، وتذوقنا هوميروس الجديد . . !

ولكن يا أولاد الحلال ، أنا لا أعرف عن هذا الرجل أكثر مما قالته الصحف وكالات الأنباء ، وإلا الأربعين أو الخمسين صفحة التى قرأتها بقلمه تعليقاً على موضوعات مختلفة . . فأنا أذكر أنه عندما فاز باسترناك بجائزة الأدب ، كانت النسخة الوحيدة فى مصر موجودة عندى لقصة « الدكتور جيفاجو » . . وعندما فاز كوازيمودو ، كانت قصيدته التى نظمها فى الأقمار الصناعية موجودة عندى . وعندما فاز الشاعر سان جون برس كان ديوانه كاملا عندى . . إلا هذا الرجل فلم أسمع عنه . ولم أر له صورة . ولا قرأت له اسماً فى أى مكان ولا فى أى مناسبة . . أنا فى عرض كتاب واحد له أو عنه . !

* * *

وربما اختارت الأكاديمية السويدية رجلا من اليونان بالذات ، لأن اليونان لم تفز بهذه الجائزة وخصوصاً فى الأدب ، بينما فازت بها فرنسا عشر مرات ، وفازت بها كل من أمريكا وبريطانيا ست مرات .

أو لأن هذا الرجل بالذات شاعر ، ولأنه أدى لبلاده خدمات إنسانية .. ولأنه من دعاة الحياة والسلام .

أو ربما لأن هذه الأكاديمية أصبحت تتجه إلى المواهب البعيدة عن الأضواء . . فليس كل ما تحت الضوء هو الموهبة . فالأضواء كثيراً ما أعمت المواهب وأفسدتها . ولذلك اختارت شاعراً . له هذا الوزن الفنى بعيداً عن الضوء . وإنتاجه محدود ، ويترجم وينظم لمزاجه الخاص ، دون أن يكون مدفوعاً من الخلف بالناس ، ومن الأمام بالأضواء .

وهناك شعراء أو أدباء أعظم منه وأشهر . وكل شىء من أعمالهم وحياتهم معروفة لنا . . بل أنت تعرف أين يعملون ، وكم يكسبون ، ومن صديقاتهم ، ومن سكرتيراتهم . وما هى أمراضهم ، وما آراؤهم فى أى شىء ... ومع ذلك لم يفز واحد منهم . . مثال ذلك مارسيل الفيلسوف الروائى المسرحى السياسى ، ومورافيا رائد الواقعية الجديدة فى إيطاليا ، وبيكيت أحد أعلام المدرسة «العبثية» فى أوربا .

ولكن الأكاديمية السويدية حريصة — إلى حد ما — على تنفيذ وصية «ألفريد نوبل» فى منح هذه الجائزة للذين ينادون بالسلام ويحرصون على الحياة . . وترى هذه الأكاديمية أن هؤلاء اللامعين أصحاب اتجاهات خطيرة تهدد السلام النفسى ، وأنهم متشائمون يدعون لليأس ، والملل والموت .

فهم جميعاً لا يستحقون جائزة الحياة والسلام ، لأنهم يعملون على عدم الحياة ومحاربة السلام . .

على كل حال هذه وجهة نظر الأكاديمية السويدية التى منحت شاعر اليونان جائزة الأدب وقيمتها ١٨ ألف جنيه إسترليني .. وهذه الأكاديمية ليست منزهة تماماً عن الغرض السياسي أو الديني أو العنصرى !

ولكن — وهذا هو الأهم — ربما كان الغرض من منح هذه الجائزة لشاعر معاصر . . أن الأكاديمية ترى ضرورة تشجيع الشعراء ، أو ترى أن الشعر ضرورى للناس فى العصر الحديث . فالعلم لم يحطم الفن . والصحافة لم تقتل الأدب . والسينما لم تمزق القصة ولم تقض على المسرحية .. وهى جميعاً لا يمكن أن تجعل الشعر فناً منقرضاً . ولا تزال الموسيقى راحة للنفس ومتعة للعقل ، ولا يزال الخيال هو أسرع وسيلة من وسائل المواصلات بيننا وبين كل ما نحلم به . . وما دام هناك خيال وموسيقى وأحلام فلا بد أن يكون هناك شعر .

بل لا يمكن أن يقوم الإنسان بتحقيق شىء فى الدنيا من غير شعر .. هل تستطيع أن تنجح فى عمل دون حرارة .. دون حماسة ، دون أن تنتظم فيه ، دون أن يكون هذا النظام للمبدأ ودون أن يكون عندك أمل ، ودون أن يكون الأمل هو سفيرك الصابر إلى أحلامك ؟ كل هذا هو الشعر !!

فلا حياة بغير شعر . .

بل لا ثورة على أى حياة بلا شعر .

فالشعراء هم أسبق الناس إلى الإحساس بكل المعانى . ويجىء بعدهم المؤرخون فيناقشون هذه المعانى ويطلقون عليها الأسماء . . فالشاعر هو الأم التى تحمل وتلد . والتاريخ هو الطبيب وهو كاتب الصحة الذى يختار اسم المولود وجنسه ودينه ويسجله فى دفتر المواليد أو دفتر الوفيات . . أما الشاعر فهو الوالد والوالدة . هو السابق دائماً إلى كل ما هو جميل وخير !

ويعتقد الشاعر اليونانى سفيريس أنه فاز بجائزة نوبل للأدب لأن الأكاديمية السويدية ترى أن الإنسانية فى حاجة اليوم ، أكثر من

أى يوم مضى ، إلى شيئين هما : الشعر والروح اليونانية !

ويرى الدكتور أندريس استرلنج رئيس الأكاديمية السويدية . أن الشاعر اليونانى فاز بجائزة نوبل لأفكاره الفذة وأسلوبه الممتاز ، ولغته الجميلة ، ولأنه أصبح رمزاً لكل ما هو خالد فى الروح اليونانية التى تدعو إلى الحياة . فهو كما قيل بحق . وهو وحده قد ترجم أسرار صخور اليونان وآثارها الصامتة . وتماثيلها الباسمة .. والشاعر سفيريس من الناحية الفنية ، قد استوحى الكثير من شعر إليوت ، ولكن تسمع فى أعماقه نغمته الخاصة التى لا تخطئها الأذن . . بل إنك لتسمع كذلك لموسيقى كورس.. إغريقى قديم ..

* * *

مبروك على اليونان ، والعاقبة عندنا فى الشعر والنثر .

اليهودى التائه إلى الأبد !

الكلام عن اليهود . . وعن الصهيونية العالمية ، هو كلام فى السياسة . وهو أيضاً فى السينما . فالسينما تخدم السياسة . والسياسة تخدم رأس المال . ورأس المال لا دين له ولا وطن له . . فأصحاب رءوس الأموال فى العالم كله يكونون طبقة واحدة . ولا خلاف بين صاحب رأس المال المسلم وصاحب رأس المال اليهودى ، كما أنه لا خلاف بين العامل العربى والعامل الإنجليزى والأمريكى . فكلهم يكونون طبقة واحدة ، لها مصالح واحدة . وموقف واحد من أصحاب الأعمال . وأصحاب رءوس الأموال .

وليس هذا الكلام فى السياسة مائة فى المائة . ولكنه كلام فى الاقتصاد وهو فى نفس الوقت كلام فى السينما . والسينما : سياسة وفلوس . ولذلك بين كل عشرة أفلام تنتجها هوليود وغيرها نجد أفلاماً لخدمة أصحاب رأس المال اليهودى. وفى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ظهرت أفلام كثيرة لخدمة قضايا الصهيونية العالمية .

وليس من الضرورى أن يكون الفيلم من أوله لآخره عن اليهود والعذاب الذى يلقونه — أو يزعمون أنهم يلقونه ، فى ألمانيا وبولندا وروسيا ، وفى العالم العربى — ولكن جملة واحدة تكفى . موقف واحد يكفى . .

والأفلام التى يمكن أن أذكرها هنا على سبيل المثال كثيرة ومعروفة . وأصبح ذكرها مكرراً . ولكن الحقيقة التى تعبر عنها هذه الأفلام أصبحت من الوضوح بحيث لا أحتاج إلى ذكرها مرة ثانية أو ثالثة . .

ولكن فى هذه الأعوام أو هذه الأيام بالذات قد وقعت فى عالمنا

العربي أحداث ، هي التي فرضت على مشاعر الناس أن يفكروا في اليهود وفي الصهيونية العالمية . .

في عام ١٩٤٧ اكتشف اليهود ، أو هكذا يقولون ، مجموعة من الأوراق التاريخية في أحد الكهوف عند شاطئ البحر الميت . وكانت هذه الأوراق مكتوبة باللغة العبرية ، وهي تتحدث عن فترة مهمة في التاريخ العالمي . . أي ما بين سنة مائة قبل ميلاد المسيح ، وسنة ٧٠ بعد ميلاد المسيح . . وقد ترجمت هذه الأوراق إلى كل لغات العالم .

وأنا رأيت عينات من هذه الأوراق في الجناح الإسرائيلي ، في المعرض الدولي عام ١٩٥٧ بمدينة بروكسل . وأهم ما في هذه الأوراق أنها تؤكد أن المسيح لم يصلب وإنما الذي صلب رجل آخر . . وأن العشاء الأخير ، لم يحدث . . وأن المسيح بالذات لم يكن له وجود في الوقت الذي حدده التاريخ المسيحي ، وإنما ظهر قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين عاماً .

ومعنى هذا الكلام أن المسيح الذي يقول المسيحيون إن اليهود صلبوه ، هو شخص آخر . فلا المسيح صلبوه ، ولا اليهود اشتركوا في صلبه!

وظهرت هذه المخطوطات . . وظهرت معها مئات الدراسات ، وابتلع العالم كله هذه الأوراق التاريخية . وصرخ بعض القساوسة وبعض المفكرين ولكن دور النشر اليهودية ، راحت تطبع ملايين النسخ من «أوراق البحر الميت» .

وآخر لعبة يهودية هي الوثيقة التي تقدم بها كاردينال ألماني اسمه (بيا) وهو في هذه الوثيقة يؤكد أن اليهود أبرياء من دم المسيح .

ومن المؤكد أن البابا قد قرأ هذه الوثيقة . وبذلك يصبح من رأى ٥٥٠ مليون كاثوليكي أن اليهود أبرياء من دم المسيح ويصبح من رأى ٣٦٠ مليون مسيحي آخر بروتستانتي وأرثوذكسي ، أن اليهود هم الذين قطعوا رأس يوحنا المعمدان ، وصلبوا المسيح . .

وجاءت الأفلام السينمائية ممهدة لهذا العفو والغفران على اليهود الذين تعذبوا بما فيه الكفاية . .

والخلاصة أن الوقت قد جاء ليعقد اليهود والمسيحيون صلحاً عالمياً على يدى البابا ، على يدى أكبر رأس دينى كاثوليكى فى العالم .

كما زار البابا الأماكن المقدسة فى فلسطين المحتلة وفى الأردن . . وكانت زيارة استغلتها الصهيونية العالمية استغلالا واسع النطاق !

فهذه الزيارة ، وما سبقها من مؤتمرات دينية فى إيطاليا وفى ألمانيا وفى أمريكا ، ثم اغتيال كنيدى على أيدى اليهود ، كل هذا يؤدى إلى الضغط العنيف على الضمير العالمى ، وعلى الوعى العربى ، ويحتم على كل إنسان أن يبحث عن اتجاه الريح القادمة من مراكز الصهيونية العالمية ، وقد أعد إطلاق الصواريخ المعادية للعرب والقومية العربية . .

ولن يطول انتظارنا . .

فقد أعلنت المجلات السينمائية أن فيلماً قديماً جداً ، سيعاد إخراجه وتمثيله من جديد . . هذا الفيلم اسمه « اليهودى التائه » . .

وهذا الفيلم قد ظهر على الشاشة قبل ذلك سنة ١٩١٣ وأنتجته شركة سينمائية اسمها « روما أمريكا » . . والفيلم مأخوذ عن قصة الكاتب الفرنسى يوجين سى . وقد ظهرت هذه القصة منذ ١٢٠ سنة .

وبعد عشر سنوات أخرى أى فى سنة ١٩٢٣ ظهر فيلم إنجليزى اسمه « اليهودى التائه » وهو مأخوذ عن مسرحية للكاتب تميل ثرستون . ولم يقدر لهذا الفيلم أن ينجح .

. وبعد عشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٣٣ أنتجت شركة « جافا » فيلماً باللغة الألمانية اسمه «اليهودى التائه » بطولة الممثل الألمانى ياكوب بن امى . وكان الفيلم من إنتاج شركة ر . ك . و . ولم ينجح هذا الفيلم أيضاً .

وفيما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ظهر فيلم ألمانى مأخوذة قصته عن مسرحية

ترستون أيضاً . وقام بالبطولة ممثل ألمانى اسمه كونراد فيت . ومن إنتاج استوديوهات تونكنهام . وقد ظهر هذا الفيلم فى وقت غير مناسب . فقد بلغت النازية فى ألمانيا أوج قمتها . وكان من الطبيعى أن يقاومه هتلر ويقاوم كل عمل أدبى أو فنى يثير العطف على اليهود . ثم جمع هتلر كل نسخ فيلم « اليهودى التائه » وأحرقها . واعتقل المشتغلين فى توزيع هذا الفيلم وفى إنتاجه أيضاً .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، ارتفعت دقات الطبول الجنائزية فى كل أوربا . وأغرقت دموع اليهود كل الصحف وكل المسارح ، والأفلام . . وشن اليهود حملة عنيفة لإرغام الألمان ، خصوصاً الألمان ، بطلب العفو والمغفرة من اليهود الذين عذبوهم وأحرقوهم . . إلى آخر هذه القصة القديمة جداً . وظهرت أفلام ومسرحيات وكتب وحفلات خيرية وندوات ومحاضرات ، لتعذيب الألمان وتعميق أشواك الندم فى ضمائرهم . . وفى كل مرة يلعنون الألمان ، لا ينسون أن يلعنوا العرب الذين يريدون أن يعودوا إلى أوطانهم التى احتلها اليهود ! !

ثم ظهر فى إيطاليا الكاثوليكية فيلم اسمه : اليهودى التائه . .

وكان بطل الفيلم هو فيتوريو جاسمان . .

والفيلم من إنتاج شركة « التوزيع المستقلة الإيطالية » . .

والفيلم يحكى قصة جماعة من اليهود اعتقلهم النازيون فى باريس . . ووضعوهم فى معسكرات الاعتقال وفى غرف الغاز ، وأحرقوا جلودهم وشعورهم وأصابعهم . . ولم يموتوا . . والفيلم يريد أن يقول إنه مهما يعمل الناس باليهود ، أو الألمان باليهود ، فسيبقى اليهود إلى الأبد . .

« وانتقل الفيلم من إيطاليا إلى أمريكا . . وظهرت الترجمة الإنجليزية على الفيلم . وتغير اسمه إلى : رجال الزمن . .

وأثار هذا الفيلم ضجة فى أمريكا . . ونجح فى أمريكا . وإن كان لم

جح فى إيطاليا . كما كان يتوقع اليهود . .

* * *

وقصة اليهودي التائه قديمة . .

فقد أطلق بعض المؤرخين على الرجل الذى زعموا أنه رفض أن يساعد المسيح يوم صلبه ، اسم الرجل الملعون . . فقد طلب منه المسيح أن يريحه . رفض الرجل أن يريحه ولو قليلا . فلعنه المسيح وقال له : ستكون ملعوناً إلى الأبد ، سيستريح الناس وتعمل أنت . . !

وانتقلت فى كل العصور أسطورة تروى ظهور هذا الرجل . .

وفى سنة ألف ميلادية كان الناس يعتقدون أن المسيح سيعود . . ولذلك عند ما ظهر رجل يدعى أنه اليهودى الملعون ، وأن المسيح سيظهر قريباً ، أغدق الناس عليه كل ما عندهم من أموال وطعام . . ثم ظهر بعد ذلك أناس كثيرون فى أوربا وفى أمريكا وفى آسيا يؤكدون أنهم هذا اليهودى الملعون أو اليهودى الذى دعا عليه المسيح بأن يظل ضائعاً تائهاً إلى الأبد . . يطلب الراحة فلا يجدها ، ويطلب الموت ، ولكن الله لا ينعم عليه بالموت . .

وقد تناول الكاتب الفرنسى الكسندر ديما قصة اليهودى الذى ذهب إلى البابا واعترف له بأنه رفض أن يقدم مقعداً للمسيح يستريح عليه ، وهو يحمل صليبه إلى مكان الجلجثة . . وطلب من البابا أن يدعو الله أن ينعم عليه بالموت . . ولكن الله لم يرحمه ، وإنما تركه على قيد الحياة ، أو ترك الحياة قيداً له يخنقه ولكن لا يقضى عليه . . فهو ملعون . . أى محكوم عليه بالحياة إلى الأبد !

والكاتب الفرنسى يوجين سى قد تناول هذه القصة فى ١٢٠٠ صفحة وناقش فيها عيوب المجتمع فى منتصف القرن التاسع عشر أى عام ١٨٤٤ .

ولاحظ يوجين سى أن عوامل التماسك والبقاء فى الدنيا ثلاثة : الأسرة والمال والشركة .. فأنت تستطيع أن تبقى عن طريق الزواج فيكون لك أولاد وأحفاد .

.. والمال يبقى عن طريق الاستثمار .. فالأموال تضاعف نفسها دون مجهود منك .. ثم لا يمكن أن تبقى وحدك وتعيش بمفردك ؛ لذلك يجب أن تكون عضواً فى شركة أو فى مؤسسة أو فى نظام .. واليهود حريصون على أن يربطوا هذه العوامل الثلاثة برباط واحد هو : الفلوس ..

ولذلك تقوم قصته على أن جماعة من اليهود اتفقوا على أن يلتقوا فى باريس يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٣٢ فخرج من بولندا رجل يهودى اسمه سيمون هو اليهودى التائه . وقد ارتدى حذاء قديماً ، وكان الحذاء يرسم على الأرض صليباً . وهذا الصليب قد رسمته المسامير السبعة الموجودة فى حذائه .. ومن أمريكا خرجت سيدة فى طريقها إلى باريس لتقابل سيمون فى اليوم الموعود .. وهذه السيدة هى هيروديا أم سالومى وزوجة ملك اليهود هيرودس ... وهيروديا هذه هى التى قطعت رأس يوحنا المعمدان وقدمته ابنتها على طبق من الفضة وهى ترقص عارية ..

ويلتقى اليهودى التائه .. واليهودية التائهة يوم ٢١ فبراير فى باريس .. وتدور حوادث قصة اليهودى التائه التى ظهرت على مسرح أوربا بعد الحرب السبعينية وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية ..

وسوف يعاد تصوير هذا الفيلم وبصورة تتفق مع ضخامة التضحية التى يتصدى لها أصحاب رءوس الأموال اليهودية ، فى أمريكا وفى أوربا .. ولا بد أن الشركات السينمائية ستختار أحد اليهود المتحمسين ليقوم بدور اليهودى التائه ، على نحو أحسن وأقوى مما قام به فيتوريو جاسمان فى إيطاليا .

ولا خلاف بين الرأسمالى اليهودى والرأسمالى المسيحى أو المسلم فلهم جميعاً مصالح واحدة . ومهما كان الرأسماليون متدينين أو مهوسين

من الناحية الدينية ، فإن تشابه مصالحهم المالية تجعلهم من دين واحد . ولذلك فالصهيونية العالمية تعتمد على دين عالمى هو دين الطبقة التى تملك الفلوس ، فى مواجهة الطبقة المفلسة التى لا تملك الفلوس .

وتحاول الصهيونية العالمية أن تجعل اليهودى التائه فى طريقه إلى الهداية . . فيصبح اليهودى المنتظر . . أو اليهودى الذى اهتدى بعد أن ضل عشرات المئات من السنين . .

ولكى يكون الصلح تماماً بين اليهود الذين سينتجون هذا الفيلم ، وبين جمهورهم فى العالم المسيحى الواسع ، فقد مهدوا لذلك محاولة للصلح التام بين الذين قال عنهم التاريخ إنهم صلبوا المسيح ، أى اليهود ، وبين الذين آمنوا بالمسيح . . فإذا تم هذا الصلح بين نصف العالم المسيحى ، فقد بقى نصف آخر يؤمن بأن اليهود هم مصاصو دماء الإنسانية وقاتلو الأنبياء ودعاة السلام . . وبقى العرب على حدود إسرائيل ، عيونهم مفتوحة وعقولهم واعية ، وقلوبهم كارهة ، حتى يبقى اليهود تائهين فى الأرض الموعودة وفى كل أرض . . !

نهاية عصر بناة الأهرام !

الكاتب الروسى تورجنيف كان يقول : إن الإنسان قادر على أن يفهم كل شىء ، قادر على أن يفهم لماذا يهتز الأثير ، ولماذا يتغير وجه القمر . . ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفهم لماذا يعطس كل إنسان بصورة مختلفة !

وليس مهماً أبداً أن يعطس الناس بصورة واحدة .

ولكن المهم أن يعطس الناس كل واحد على طريقته ، وأن يأكل ويشرب ويعيش على طريقته .

وأهم من ذلك أن يكونوا إناساً . . أن يكون بشراً . . أن يفهموا ويتفاهموا ، وأن يعيشوا ويتعايشوا ، وأن يرتبطوا بالخير ، ويترابطوا فى سلام!

وإذا كانت الشمس تدفئ الهواء . فإن الصداقة تدفئ القلب . . كما يقول خروشوف !

والذى حدث فى أسوان هو أحسن نموذج لما فعلته الشمس والصداقة معاً!

* * *

ولا شك أن بناء السد تجربة ناجحة ، والتجربة هى بداية المعرفة . . أى بداية معرفتنا للبناء والتصميم والتنفيذ .

والمعرفة قوة . . لأنها تجعلنا قادرين على أن نقوم بمشروعات أخرى ، ولأنها تعطينا الثقة بالنفس فنتجه إلى ما هو أصعب .

والسد العالى ليس أصعب مشاريعنا . . وإنما هناك مشروعات

بعب وأقسى .. فليس أسهل – بعد اليوم – من تحطيم الصخور وتجويفها وتحويلها إلى رمل . ثم إعادة بنائها .

ولكن الأصعب من ذلك هو تحريك الناس ، وتحويلهم وتطويرهم ودفعهم إلى الإنتاج فى إطارات اجتماعية جديدة . . إن بناء الصخور ، بعضها فوق بعض ، أسهل من بناء الناس بعضها مع بعض . .

وبناء المصانع أسهل من بناء الناس . . كما يقول جمال عبد الناصر !

ومع ذلك فنحن لم نبن السد . .

وإنما السد هو الذى بنانا . . فنحن لم نشيد السد ، وإنما السد هو الذى أقامنا .

فقد عرفنا أن العمل ، أى عمل ، هو تصميم وتنفيذ . .

فالذى ينفذ ليس من الضرورى أن يكون هو الذى يصمم . . والذى يصمم ليس من الضرورى أن يكون هو الذى ينفذ بيديه . .

فهناك من يعمل بيده ، وهناك من يعمل برأسه . . ولكن الأيدى الواعية والرؤوس المثقفة تعمل معاً من أجل بناء شىء واحد . .

فالسد قد علمنا قيمة العمل الجماعى ، والمسئولية الجماعية . .

ونحن يجب ألا تبهرنا هذه الصخور الهائلة . ولا هذه الكراكات المخيفة . ولا الأنفاق الرهيبة . ولا الأنابيب المتوحشة . .

فليست هذه الكراكات إلا أطرافاً صناعية ابتدعها الإنسان ليستغنى بها عن يديه ورجليه .

فأنا بأصابعى أستطيع أن أحطم قطعة سكر . . ولكن بهذه الأصابع الصناعية أستطيع أن أنقل جبلا . .

وليست هذه التجاويف الهائلة فى الصخور ، إلا من صنع تخاويف صغيرة جداً فى رأسى . وليست هذه الأنفاق والأنابيب إلا انعكاساً لشعيرات وتلافيف هزيلة جداً فى مخى .

فالذى أمامى لا يبهرنى ولا يدهشنى لأن مصدر الدهشة والانبهار هو شىء صغير جداً أحمله على كتفى .

ففوق كتفى توجد القدرة الخالقة . يوجد التصميم والتنفيذ معاً . .

فنحن عند ما نشيد بالسد العالى ، إنما ننسى الإنسان الذى تصوره بعقله ، وأقامه بيديه . .

فنحن يجب ألا نتوج السد العالى ونخلع الذين بنوه . .

وإنما يجب أن نتوج الذين بنوه . لأننا سنعيد تتويجهم مرة أخرى عند ما ينفضون أيديهم من رمال وصخور أسوان . ويبدأون فى عمل جديد . . أصعب وأبقى !

فما كان من الممكن أن يوجد سد لولا الإنسان الذى تخيله وأوجده بعد ذلك . .

فليس السد إلا « مناسبة » يظهر فيها الإنسان قدرته اليوم . . وقدراته غداً . . !

وبظهور السد ينتهى عصر بناة الأهرام . .

عصر الذين يقدسون الموت . وما بعد الموت .

فقد كان بناة الأهرام . يقتلون الشعب بالعمل والكرباج لكى يبنوا هذه المقابر الضخمة إيماناً منهم بأنه لا حياة إلا بعد الموت . ولا سعادة إلا فى القبر . وأن الحياة قنطرة وعلى الناس أن يعبروها لا أن يعمروها !

ثم ماذا فى القبر ؟

فى القبر غرف مفروشة ، فيها ذهب وماس . وفيها طعام وشراب . وفى القبر سراديب لتضليل اللصوص . وأبواب سحرية . وفى القبر خط الموكب الملكى من الدار إلى النار أو من النار إلى الجنة . وفيه خريطة للهرب إلى العالم الآخر ، الذى هو تحت الأرض أو وراء الشمس . .

لقد عاش بناة الأهرام من أجل أن يموتوا . .

وعاش الشعب من أجل أن يموت . وهو يبنى مقابر هؤلاء الملوك . .
فالشعب صناعته القبور .. كل الشعب من الحانوتية . . وأغانى الشعب هى أغانى الموت . .
ومات الشعب وبقيت هذه الأهرامات . وبقيت أضرحة خوفو وخفرع ومنقرع !
وببناء السد لا بد أن تنتهى هذه الروح القاتمة العميقة الحزن، والأسى . . الرطبة كغرف الدفن . المظلمة كالسراديب . الهائمة كدخان البخور . وأن تختفى عقلية الحانوتى ، وتوابل المصاطب . وكتب الموتى . والكاتب الجالس القرفصاء !
والشعب الذى فرض عليه أن يبنى مقابر ملوكه . اختار اليوم أن يبنى السد . .
وليس السد عالياً كالهرم . ولكنه أعمق . .
السد مصنع ومزرعة ومطعم وجامعة وأسلوب عمل ، ورمز حياة .
لا حياة فرد واحد بعد الموت . ولكن حياة الملايين قبل الموت . .
وبارتفاع السد يجب أن تنتهى الروح الهرمية . أو هذه «العقلية الهرمة» . . وأن نفسح الطريق أمام «العقلية السديدة» التى أرادت الحياة . فأقامت السد أو التى أرادت السد لتقيم لها حياة أفضل . . !

* * *

ومن ألوف السنين كان الملك سليمان يتأمل فى السماء والأرض ، ويبدو أنه قد فهم كل شىء حوله .
ولكن شيئاً واحداً لم يستطع أن يجد له تفسيراً . .
لقد كان ينظر إلى ماء الأنهار . فيجده يصب فى البحر ، كان يقول : الأنهار تصب فى البحار . فلا الأنهار جفت. ولا البحار امتلأت .
وطبعاً لم يكن الملك سليمان يعرف قوانين تبخر المياه من البحار

وسقوطها مطراً فوق الجبال . ثم نزولها إلى الأنهار . . ثم إلى البحار . . وإلى الأبد !

ولكن الملك سليمان لم تصل حكمته إلا إلى أنه يمكن الفصل بين الماء العذب والماء المالح . . ولم يتصور أبداً أنه يمكن وقف ماء الأنهار العذب حتى لا ينصب كله فى البحر . . لم يتصور أن هذا ممكن .

وتوقف الملك سليمان عند هذه الظاهرة الغريبة . . ومات ومعه هذا اللغز . ومضت على ذلك ألوف السنين .

ونحن نرى اليوم أن وقف ماء النيل عن البحر ليس صعباً ولا لغزاً .

فقد حققنا ما رآه النبي سليمان مستحيلا . . ونفذناه فى بضعة أيام . وبعدد قليل من الناس .. وانشغلنا بمشاريع أخرى أصعب من السد العالى .. هى بناء الذين يبنوا السد !

فوضع حجر فوق حجر ، هذا سهل ، ووضع البذرة المناسبة فى التربة المناسبة هذا صعب . وتعلم الناس كيف يحولون التراب إلى ذهب ،وكيف يحولون المادة إلى طاقة . وكيف يصونون الطاقة . وكيف يبنون ليعيشوا فى خير وسلام . . هذا هو الصعب جداً ! . .

ولكن بتكرار تجربة السد ، ، أى تجربة العمل معاً ، والصبر والتصميم سيصبح كل صعب سهلاً !

الصفيحة وقعت

كل إنسان يحمل طفولته على رأسه كأنها صفيحة ماء . تظل هذه الصفيحة تهتز طول عمره . ويتساقط منها الماء . . وقطرات هذا الماء مختلفة الأحجام ، ولا توجد لها مواعيد محددة . .

ربما كانت المواعيد المحددة لسقوط الماء هى حالات الانفعال الشديدة . . كالخوف والفزع والشعور بالخطر . .

وفرويد يقول إن الإنسان عندما ينفعل جداً ، فإنه يرتد إلى طفولته ، أى يتحول إلى طفل كبير . .

وفى لحظات التحول ، هذه ، إلى طفل ، تهتز صفيحة الماء وتتساقط قطراتها . .

وسيبقى الماء يتساقط من صفيحة طفولتك . ولا داعى أبداً أن تغير ملابسك . ولا أن تغير طباعك ولا أن تقاوم هذه الطفولة التى هى ماضيك . فلا أحد يستطيع أن يتخلص من ماضيه . وإن كان من الممكن أن تتخلص من ملابسك الصغيرة . البنطلون الصغير فوق الركبة . والقميص الذى فى حجم منديل اليد .

ولكن الأيام التى كنت تلبس فيها البنطلون القصير والقميص الصغير ، وكانت لك ريالة . هذه الأيام ستبقى منقوشة على أشرطة ريكوردر غريب جداً فى رأسك . . بل ملايين الأشرطة الدقيقة فى رأسك . .

وفى الأسبوع الماضي حدث لى شيء غريب . وأحسست أن صفيحة الماء التى أحملها على رأسى — مثلك تماماً — قد انفتحت وأن الماء نزل على خدى وتجاوز خدى وصدرى . وحاولت مقاومة الماء . ولكن هذا الماء أطاع قانون الجاذبية الأرضية طاعة عمياء . واحتراماً منى للقانون لم أتدخل فى نزول الماء . واستنكاراً منى لأن يكون التنفيذ أعمى . حاولت أن أمنعه . .

فقد قابلت رجلاً كان يدرس لى الحساب عند ما كنت تلميذاً صغيراً فى المنصورة . وأنا فى الحقيقة لم أقابله . وإنما وجدته أمامى . . اصطدمت به واصطدمت به فى نفس الوقت الصفيحة التى فوق رأسى . . وبدون تفكير منى تساقط الماء . وبدون تفكير منى وضعت يدى على أذنى فقد كان من عادة هذا المدرس أن يقرص الطلبة فى آذانهم .. ومن الغريب أننى سلمت عليه بيدى اليسرى . . ونسيت أن يدى اليمنى على أذنى . . ولم أفكر فى أن أغير هذا الوضع .

واندهش الرجل جداً كيف أننى أقابل فرحته بلقاء أحد تلامذته بهذا الشكل الغريب . . وسألنى : سلامة يدك . .

وهنا فقط تنبهت إلى هذه الحركة اللاشعورية التى جمدت يدى على أذنى . . كأن الماء الذى سقط من الصفيحة كان بارداً جداً . . أو كان دشاً مثلجاً . . ولم أجد ما أقوله لهذا الأستاذ عند ما وضعت يدى على أذنى . . ولا عند ما أحسست بالارتياح لأننى لم أعد تلميذاً ، ولأنه لم يعد قادراً على قرص أذنى ، ولا عند ما مددت يدى أودعه فقرصته هو من أذنه !

لقد كانت حركة يدى لاشعورية فى المرتين . .

ولكن فى المرة الأخيرة . أعتقد أن الصفيحة كلها قد تسللت تحت ملابسى . . وإمعاناً فى إغاظتى . لم يشأ الماء أن يحترم قانون الجاذبية

الأرضية . فلم تسقط قطرة على الأرض إن الذى سقط هو قلبى ملفوفاً فى كسوف .

فعذرة أقدمها لك أيها الأستاذ الطبيب . باعتبارى ولى أمر هذا التلميذ الصغير !

أى فنان : مشكلة !

طعام الأغنياء فى حاجة إلى معدة . ومعدة الفقراء فى حاجة إلى طعام . . فالغنى يحسد الفقير على معدته . . والفقير يحسد الغنى على طعامه .. ويحسد الفقير أيضاً على شهيته المفتوحة . وعلى أسنانه القوية وعلى معدته التى تهضم الظلط . وعلى صدره العارى فى مواجهة الريح . . وعلى شىء أهم من هذا كله على أنه يحب الحياة . وعلى أنه يعيش بشىء آخر غير الخبز .. فليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . فالأغنياء يملكون الخبز . ولكنهم لا يعيشون .. والفقراء لا يجدون الخبز . . ولكنهم يعيشون .. يكفى أن عندهم أملاً فى خبز أحسن وأكثر . . سواء فى هذه الحياة أو فى الحياة التى بعدها . فالذى يملك الأقل . يملك الكثير . والذى لا أمل له .. هو من أفقر الفقراء ــ فإذا أكل فلا أمل عنده فى أن يكمل طعامه . وإذا أكله فلا أمل عنده فى أن تقوى معدته على هضمه ، وإذا هضمته معدته فلا أمل عنده فى أن ينجو من المرض ، وإذا مرض فهذه نهايته !

فالحياة هى أخت الأغنياء . . مجرد أخت ، أى لا تحل لهم . .

ولكن الحياة هى عشيقة الفقراء والفنانين . . تحن لهم . هى وألف واحدة غيرها !

فالتاجر الذى ينجح فى عمله ، ويجمع المال من كل مكان لا يهمه فى الدنيا إلا أن ينجح دائماً بكل وسيلة . فالنجاح هو الإله الذى يعبده . وهو مشغول بالنجاح عن الحياة فالحياة طعام ودفء وسيارة وفلوس وسلطان يجده الرجل الغنى دائماً ، فى يده دائماً . فى جيبه . فى مكتبه . فى بيته . ولكنه يحسد الذين يجدون المعنى الكبير فى الطعام القليل . فى كوب الماء البارد . فى نسمة الهواء . فى شبر من الظل . . فى نظرة إلى السماء !

ولذلك كان الخلاف دائماً بين التاجر والفنان . . بين الذى ينتج الطعام ويبيعه ولا يذوقه . وبين الذى يستهلك الطعام ويذوقه . .

* * *

هذه المعانى كلها تدور فى حرارة وصراخ فى مسرحية « الإله الكبير براون » للكاتب الأمريكى يوجين أونيل والتى ترجمها جلال العشرى . وكتب لها مقدمة طويلة دريني خشبة ؛ وربما كانت هذه المسرحية الخامسة التى ظهرت بالعربية للمؤلف الأمريكى . فقد ترجم له جلال العشرى أيضاً مسرحية « القرد الكثيف الشعر » . وترجم له كمال الملاخ مسرحية « التيه » وظهرت مسرحية « رغبة تحت شجر الدردار » . . وأنا ترجمت له مسرحية « الإمبراطور جونز » . ولا شك أن هذا الكاتب العظيم يستحق كل هذا الاهتمام بمسرحياته . ويستحق الدراسة العميقة أيضاً . فهو رجل جاد ، ويعنى ما يقول . ثم إنه مهموم بمأساة الإنسان وصراعه مع نفسه ومع غيره . .

وفى هذه المسرحية نجد أمامنا شاباً اسمه « براون » . . أبوه غنى . ويريد أن يجعله مهندساً معمارياً ليرث أمواله الكثيرة . ويدخل هذا الشاب الجامعة ويدرس ويتخرج ويدير شركة أبيه ويصبح رجلا مشهوراً ناجحاً بلا أى مجهود . وكل أولاد الأغنياء لا يصعدون السلالم . وإنما السلالم هى التى ترتفع بهم . إنه لا يتحرك ولا يمشى كأنهم سيدخلونه فى مسابقة أتخن إنسان فى العالم . إن أبناء الأغنياء يعيشون وحدهم . لأنه ليس من

المفروض أن يرافقوا أحداً من الناس . .

وأمامنا شاب آخر زميل له اسمه « ديون » . . أبوه شريك لوالد « براون » فى إنشاء البيوت. وأبوه يريد أن يكون مهندساً معمارياً أيضاً يكسب الألوف مثلما كسب . ولكنه فى نفس الوقت لا يريد لابنه أن يدخل الجامعة . . فالجامعة لا تعلم الناس إلا الاعتماد على الغير . ولكن يريده أن يعتمد على نفسه وأن يشق طريقه بيديه ورجليه . وأن يمشى ويجرى. كأنه سيدخل فى مسابقة أنحف رجل فى العالم .

والشابان يحبان فتاة واحدة هى مرجريت. . ومرجريت هذه نموذج للأنوثة الخالدة . . أو للحياة المتجددة . وبراون يحب هذه الفتاة . ولكن الفتاة تحب الشاب الآخر «ديون » ولكن براون راح يتغزل فيها . وكلما راح براون يتغزل فيها أخذت هى تتغزل فى ديون الفنان الذى يستطيع أن يرسم كل شىء وبصورة جميلة . والذى هو يشبه القمر . . الذى يسطع على صدر البحر دائماً وهى هذا البحر وأمنيتها الوحيدة من الحياة أن يظل القمر فى مكانه على صدر البحر . .

ويتزوج الفنان هذه الفتاة . ويظل المهندس يحبها . وينجب الفنان ثلاثة من الأبناء . .

ويظل المهندس المعمارى والتاجر الغنى يحب زوجة الفنان . التى لا تزال عاشقة مجنونة بزوجها ومواهبه . . .

أما الزوج الفنان فهو يعمل فى مكتب المهندس المعمارى . والزوج الفنان مخمور طول الوقت . وهو أيضاً نادم أشد الندم على هذه الحياة . ولا يعرف كيف يتخلص من الخمر أو هو لا يريد أن يتخلص . فهى وحدها التى تجعله قادراً على أن يعيش حياته . . وعلى أن يكون قريبا إلى نفسه . . تماما كالمتصوفين الذين يشعرون بنشوة الإيمان والفناء فى الله وعلى الرغم من أن هذا الفنان هو الخالق الحقيقى لكل التصميمات التى يبيعها المهندس

ويكسب منها . .

فإنه جندى مجهول . فهو الذى ينتج اللوحات . ولكنه ليس هو الذى يبيعها وليس هو الذى يكسب منها . والناس لا يتحدثون عن الفنان المجهول وإنما يتحدثون عن المهندس المشهور . ولكن الفنان يعلم علم اليقين أنه هو مصدر هذه الثروة . رغم أنه يعيش فى الظل . فهو كالميت أو كالشبح . ولكن هذا الشبح هو مصدر حياة هذا المهندس الذى لا حياة له ولا فن له . ولا قدرة له على الخلق . فالفنان الميت هو الحى بالفعل . والمهندس المعروف هو الميت بالفعل !

والمهندس التاجر الناجح يحسد هذا الفنان . .

يحسده على حب زوجته له . رغم أنه لا يملك شيئاً . وهو يحسده أيضاً لأنه يحب زوجته . ويحب الحياة ويحب الناس كلهم . يحسده على قدرته على أن يحب . وهذه القدرة على الحب هى التى تمكنه من الحياة . فلا حياة بغير حب . وكل إنسان يحب . وكل الناس يحبون بعضهم بعضاً . والناس يحبون الله . والله يحب الناس . .

والحب كلمة قديمة . . إنه شبح كلمة . إنها كثوب قديم ممزق . . ولكن يفقده الأغنياء الذين لا يعرفون إلا الكراهية المدججة بالسلاح . . والحب كوجه مكشوف يستجدى الحياة على كل باب وبكل ثمن . .

ويموت الفنان فى إحدى نوباته القلبية أو العاطفية . . ويخلق موته مشكلة حقيقية . فالمهندس الذى يعيش على لوحاته لا يستطيع أن يواجه الناس وحده . فهو لا يعرف كيف يرسم وإنما الذى يقوم بهذه الرسومات هو زميله الفنان « ديون » . . وكان لا بد أن يوهم الناس بأن الفنان حى ؛ لكى يقبل الناس لوحاته . ولكنه فى نفس الوقت يشعر بشىء من الارتياح لأن وفاة هذا الفنان قد أزالت من نفسه أسباب حسده . وأسباب حقده عليه . . ثم أزالت شعوره الدائم بأنه ليس حيا وبأنه يعيش على دماء

الآخرين . على حياة الآخرين ، على فن الآخرين . . وأنه هو شخصية عاجز عن الحياة وعن الإبداع الفنى . . ثم إنه عاجز عن إقناع زوجة الفنان بأن تحبه وأن تقنع به وأن تجد فيه أية ميزة . . ولكنها لا ترى إلا زوجها . ولا ترى فى هذا المهندس إلا أخاً . ولكنها ترى فى الفنان زوجاً وصديقاً وعشيقاً . وهذه الزوجة هى رمز للحياة فى المسرحية . التى هى حلال على الفنان . حرام على التاجر !

ويحاول التاجر أن يؤدى دور الفنان . أن يمثل حب الحياة وحب الزوجة . وينجح فى التمثيل . . ينجح فى عمله وفى بيت صديقه . . ثم ينطلق عليه الرصاص . رصاص الواقع ويموت المهندس وهو ما يزال فى ثوب الفنان . . ويسجل القتيل فى دفاتر البوليس على أنه إنسان . . أى إنسان حاول أن يكون فناناً فمات . . إنه رغم غناه وثروته عجز عن أن يموت فقيراً فناناً !

* * *

ومسرحية يوجين أونيل رمزية . . فيها أسلاك مكهربة . . وهذه الكهربة تصدم ، وفى نفس الوقت تلسع وتوجع وتضىء كأنها ، برق ورعد فى ليالى النفس الإنسانية المظلمة . .

وهى فى نفس الوقت تكشف الحياة فى أمريكا وتفضحها . . حياة التجار الجشعين . . الذين يأكلون بعضهم بعضاً ، ولكن لا طعم للحياة عندهم . ولا وقت للحب عندهم . ولذلك يتضخمون ويموت إلى جوارهم أناس يصرخون . وهؤلاء الصارخون أحسن حالا منهم . لأنهم قادرون على الإحساس . على الشكوى على الصراخ . على الموت . وهم فى موتهم هذا يمدون هؤلاء الأغنياء بالحياة . . فالميت هو الحى ، والحى هو الميت . والغنى القاتل هو القتيل .

وقد استطاع جلال العشرى . فى ترجمته لهذه المسرحية أن يحتفظ

لها بالصورة الشاعرية . . وبالجو الصوفى . فجاءت جميلة حارة . . وليس عرضى لهذه المسرحية إلا تلخيصاً سريعاً . وليس إلا إشارة بسيطة جداً لحياة معقدة متضاربة غامضة . ولكن هذا الغموض قد اختاره المؤلف عمداً فليست الحياة بهذه البساطة، ولا بهذا الوضوح .. إن الوضوح هو أحد آمال الفنان والعالم، وأحد آمال الحياة نفسها . فهى تكشف عن نفسها كل يوم بشكل ولون وحجم .

* * *

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإسبانى سانتيانا بعد الثلاثين عاماً التى قضاها فى أمريكا صحيحة تماماً . . فهو قد وصف المجتمع الأمريكى بأنه : مجتمع الرجل المنتج الذى يصنع السلعة . ثم يخلق الرغبة فيها . فهو ينشر عنها ويدعو لها ويرغم الناس على استهلاكها رغم أنهم لا يريدونها ورغم أنهم لا يحتاجون إليها . . ولذلك امتلأت المحلات بأدوات الإفطار وصابون الحلاقة والأسطوانات الصارخة وأساتذة الجامعة . والسيارات المجنونة التى تطارد القرش الأبيض فى أى مكان من العالم وبأى ثمن . وأثناء المطاردة يأكل الناس طعاماً فاسداً يصيبهم بالمرض . وقبل أن يحس الناس بأمراضهم تتساقط عليهم أدوية جديدة . . هذه الأدوية اشترك فى إنتاجها نفس الرجل الذى اشترك فى إنتاج الطعام الفاسد !

ولا ينتهى الصراع بين التاجر والفنان . . بين الذى يجد الطعام . ولا يستطيع أن يتذوقه وبين الذى وجده وتذوقه . . أى بين الذى يعيش وبين الذى يتألم !

كصاروخ إلى قمر !

قرأت قصة حياة فتاة إنجليزية . ليست لها حياة بالمعنى المألوف عند ما نتحدث عن أديب كبير أو فنانة عظيمة . ولكنها رغم صغرها ، ورغم أنها لم تصدر إلا عملا أدبياً واحداً، يعتبرونها من أديبات الصف الأول فى بريطانيا . وبعض النقاد يقولون : بل فى أوربا كلها .

الأديبة الصغيرة اسمها شيلا ديلانى . .

وهى دون الثلاثين . وعملها الأدبى الوحيد اسمه « لمسة العسل ». ويظهر أن هذه الأديبة راحت تنمو على مهلها وبعيداً عن العيون . فلما ظهر عملها الأدبى مثل ثمرة ناضجة . أخذ النقاد يبحثون عن أصل الشجرة والتربة التى عاشت عليها ، ومن أين جاءت ولماذا لم يرها الناس وهى بذرة ثم وهى شجرة يانعة . . ولم تشأ الأديبة الصاروخية أن تتحدث عن حياتها . ولا كيف نشأت ولا من أين جاءت وإنما قالت عبارة واحدة هى : إننى مسحت البلاط قبل أن أمسك القلم !

ومسح البلاط تعبير مألوف ، وأول ما تقع عليه عينك تفهم منه أنها تعبت وتعذبت وتبهدلت قبل أن تصل إلى التأليف .

فالتعب والعذاب والعرق والدموع ، والصبر والحرمان هى الهواء الذى يتنفس فيه الناس . ولذلك فإذا قال لك أى إنسان إنه يتنفس . فليس فى هذا شىء جديد إلا إذا كان هذا الإنسان مزكوماً مثلى معظم الوقت !

ولكن الأديبة الإنجليزية مسحت البلاط فعلا . . فى كثير من المطاعم والفنادق . واشتغلت بائعة للصحف واشتغلت بائعة للتذاكر . وطردت من عملها فى إحدى المرات عند منتصف الليل ، وكان عليها أن تقطع الرحلة المظلمة الممطرة ، بين منتصف الليل ومطلع النهار ، بين لندن وبين إحدى المدن التى تبعد عنها مائة كيلو متر ، وليس فى جيبها مليم واحد . وكان عليها أن تمشى على قدميها و وحدها ، وكان عليها أن تقنع نفسها طول الوقت بأن الحياة هى كل ما أعطى لها . . وأنها لا يجب أن تنتحر يجب أن تعيش حتى لو رفضها كل أصحاب المطاعم والفنادق فى بريطانيا . فإذا طردوها فمعنى ذلك أنهم يعترضون فقط على أسلوبها فى العمل ، أو حتى معاملة الناس . . ولا يمكن أن يكون الاعتراض على العمل أو على الأزياء التى ترتديها ، اعتراضاً على وجودها كله . . اعتراضاً على شخصيتها على الأفكار التى فى رأسها ، ولم تعلن عنها بعد . . ولذلك لم تنتحر . لأن الذى ينتحر هو الذى وقع فى أزمة . هذه الأزمة معناها : إن هناك اعتراضاً جوهرياً على وجوده .

وفى حديثها فى الراديو قالت : لا أحد يستطيع أن يعترض على وجودى كله . أنا فقط التى أعترض على وجودى وأنا فقط التى أختار حياتى . ولم يرغمنى حتى الآن أى إنسان أو أية فكرة أو أى موقف على أن أعترض على وجودى . . ولذلك فأنا أعيش . . أنا أحيا بلا اعتراض من أحد . !

والذى أعجبنى فى هذه الكاتبة الجديدة هى أنها لم تفكر لحظة واحدة فى أن تتفرغ للأدب منذ أحست برغبتها فى الكتابة . وأنها أحست أن اشتغالها بأعمال كثيرة هو من صميم الأدب . من صميم ممارسة الحياة ، ومعاناة الواقع . . فكل هذه التجارب السريعة الأليمة ، ليست إلا نوعاً من التدريب على الإحساس بالناس . وعلى الاتصال بهم والاصطدام بمصالحهم . لأنه لا فن بلا تجربة .

فالفنان يجب أن يبدأ حياته تماماً كالنمل الذى يختزن فى أوكاره كل طعامه . من أى مكان . . مجرد أن يختزن . وبعد ذلك يجد الفنان نفسه وقد تحول من نمل إلى نحل . . أى مجرد حيوان يختزن . إلى حيوان يحول هذه المواد التى اختزنها إلى رحيق من العسل . .

وأنا يعجبنى جداً ذلك الطريق الذى سارت فيه الأديبة الجديدة . . فهى لا تعتبر أنها أخطأت الطريق إلى الأدب أو إلى الفن . . وإنما هى مشت فى الطريق العادى جداً : أى طريق التجربة الشخصية ومصافحة الناس ومصافحة وجوههم أيضاً بعينها و بمشاعرها . .

ويظهر أن الأديب أو الفنان فى بداية حياته لا بد أن يمتلئ بالناس ولكن عملية الامتلاء هذه محتاجة إلى مجهود تماماً كالساعات القديمة . التى لا بد من استخدام مفتاح لكى تملأها به . . وبعد ذلك يتعود الأديب على التجربة وعلى الناس ، فيمتلئ من تلقاء نفسه كالساعات السويسرية التى تمتلئ بمجرد الاهتزاز . .

وأنا فيما يلى أنقل عينات فقط من حديث الأديبة الإنجليزية كدليل على تواضعها ، وعلى فهمها لرسالة الأديب والفنان فى المجتمع :

س : أنت تعتبرين نفسك من أية مدرسة أدبية ؟

ج : أنا لا أعتبر نفسى أديبة لأننى أصدرت كتاباً واحداً . وأن هذا الكتاب ليس إلا بطاقة شخصية كتبتها بسرعة .

س : ولكن على أى حال هذا الكتاب يعتبر عملا أدبياً ، أو على الأقل هذا هو رأى النقاد الكبار ؟

ج : طبعاً هذا عمل أدبى . ولكنه أول أعمالى الأدبية . ولذلك فأنا أعتقد أن النقاد أميل إلى تشجيعى وأبعد عن تقدير قيمتى الحقيقية . . وليس كلامى هذا إلا رأياً فقط . . ولكنه ليس نقداً لنقد هؤلاء النقاد الكبار .

س : قرأت شيكسبير طبعاً ؟

ج : لم يتسع وقتى للتأمل الطويل فى مسرحيات هذا العبقرى . .

س : هل قرأت لكل الشعراء الكبار فى العالم ؟

ج : يمكننى أن أقول لك : إننى لم أقرأ شيكسبير قراءة واعية ، لتعرف مدى عجزى وضيق أفقى الأدبى . . وأنا لم أصل بعد إلى حالة اليأس من نفسى . . فقد عرفت أن أدباء كباراً لم يقرأوا كل مسرحيات شيكسبير . وبالطبع كل مسرحيات الشعراء العظام فى بريطانيا وفى العالم . ولا قرأت سارتر ولا فوكنر ولا جينيه . . وليس سراً أن أقول لك إننى لم أر معالم بلادى . . بل ولا معالم مدينة لندن !

س : أنت من رأيك أن المجتمع الإنجليزى لا يزال ينظر إلى المرأة على أنها أقل من الرجل . . لماذا ؟

ج : أنا أعتقد أن هذا ظلم اجتماعى فقط . . ممكن من الناحية العلمية نعرف أنه لا يوجد أى فرق فى تكوين جسم المرأة أو جسم الرجل . . وأن الاثنين من الناحية التشريحية لا يختلفان فى شىء . هذا من الناحية العلمية . ولكن هذه الحقيقة العلمية . مع الأسف . لم تنتقل إلى كل الناس فى كل مجال . ولذلك بقيت هذه الحقيقة محبوسة فى بعض الكتب وبعض الرءوس التى ليس لها أى نشاط اجتماعى . . فكثير من الآباء والأمهات والإخوة يعاملون الفتاة المتعلمة العاملة أيضاً على أنها إنسان ناقص التكوين ، بل يرون أن من حقهم وحدهم أن يختاروا لها عملها وأسلوبها فى الحياة . ويختاروا لها زوجها . . بل إن الهيئات الحكومية لم تعط للفتاة التى إذا تساوت مع الرجل . فى العلم والعمل ، نفس الأجر ، ولا نفس فرص التقدم والمسئولية . . وأنا أرى أن هذا شىء أكثر من الظلم . لأن الظلم من الممكن أن يكون سببه الجهل . ولكن هذا الظلم الرسمى ظلم عن علم . . أى إنه ظلم رغم العلم . فهو إذن ظلم مقصود . لماذا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه ولا

أستطيع أن أسكت عليه . .

(هذا الحوار أخذته عن كتاب بعنوان « الجيل الصارخ » للكاتب الإنجليزى إدوارد لانكسرت) .

والذى يهمنى جداً من هذا النموذج من الأدبيات أنها جادة وأنها متواضعة وأنها ترى أن الاشتغال بالأدب أو بالفن يجب أن تسبقه تجارب . وما دامت هناك موهبة أدبية . فهذه الموهبة لا يمكن أن تضل طريقها إلى هدفها مهما طال هذا الطريق ، ومهما تشعب ، ومهما امتلأ بالظلام تماماً كالشمس . لا بد أن تشرق من وراء السحب . . مهما كانت هذه السحب كثيفة . .

فالأديب أو الفنان يشبه الصواريخ التى نبعث بها إلى القمر . . فهذه الصواريخ لا نطلقها فى اتجاه القمر . . وإنما نحن نطلقها لتدور حول الأرض مرة ومرتين . . ودورانها حول الأرض يكسبها قوة واندفاعاً شديداً . وبعد ذلك نوجهها نحن إلى القمر . .

وكذلك الأديب ، فهو يلف ويدور ، واللف والدوران يعطيه قوة وحيوية ويملأ رأسه . ويشحن قلبه . ويبرى قلمه . وبعد ذلك يتجه أقوى وأكثر حيوية وحرارة إلى هدفه . إلى أدبه وفنه !

مصر الزراعية . . هبة النيل
مصر الصناعية . . هبة السد!

ستعود شاعراً إذا ذهبت إلى السد العالى . . فأنت لا تملك إلا الدهشة . .

وإذا حاولت أن تعبر عن دهشتك ، فلا بد أن تستعير صلابة الصخور ، وإيقاع المعاول ، وهدير الموج ، ووهج المصابيح . وإصرار الآلات . واحترام الإنسان الذى صنع السد العالى . . والذى حول الجرانيت إلى عجين . ثم حول العجين إلى جرانيت . .

حتى هذه الشاعرية التى ستصيبك هى بفضل الذين يعملون فى السد . فلولا العرق ، ما صنعوا شيئاً يبهرك ويهزك . ويعتقل ويطلق خيالك . .

إننا نشبه الذى يركب زورقاً فى ليلة مقمرة . .

فهذا الراكب يسند ظهره إلى الزورق ويمدد رجليه ، ويتطلع إلى القمر مرتين . . مرة فى السماء ، ومرة على الماء ، ومرة ثالثة فى عينى فتاة جميلة ، ومرة رابعة يغلق عينيه ويتخيل على ظهر القمر ما يشاء . .

وفى هذه الأثناء يكون هناك رجل يقوم بتحريك المجاديف — ونحن نسمع لوقع المجاديف موسيقى . . وتارة نقول عن المجاديف إنها تلطم الماء حداداً على القمر . وتارة نقول إنها عكازان يتوكأ عليهما الزورق وهو يمشى فوق هذا البساط النقى . . ولكن الرجل الذى يستخدم المجدافين لا يحس لا بالقمر ولا بالنهر ولا النسيم ولا الموسيقى . . فهو لا يتنزه . . إنه يعمل . . إنه يعرق . . إنه عربجى لحنطور بطىء . . لحنطور من نوع غريب . . فهو يقوم بدور الحصان والعربجى والكرباج فى وقت

واحد . . فليس عنده وقت ليقول شعراً . . ولكن يجب أن يعمل ويعرق ويلهث ، لنتغزل نحن فى الماء وما فوق الماء ، وفى السماء وما وراء السماء . .

فشكراً للذين ليس عندهم وقت لنظم الشعر ، لأنهم مشغولون فى نظم الصخور ، وفى التوزيع الموسيقى للمعاول ، وفى تلحين أنشودة العمل من أجل الخير والسلام . . !

• • •

فما الذى فعلناه بنهر النيل ؟

إن هذا النيل عجوز سفيه . . فكل ما يجمعه من أمطار الحبشة وغابات السودان يلقى به فى البحر الأبيض . .

وظل كذلك ألوف السنين . . ولم يجد أحداً يقنعه بالعدول عن هذا الإسراف وهذا الجنون . بل إنه وجد أناساً يقيمون حوله المعابد ويقيمون حول المعابد لا يبرحونها كأنهم أشجار ، أو كأنهم أحجار . ويكرهون الهجرة . وإنما يولدون ويموتون فى نفس المكان .

وهم يعيشون ويموتون على نزواته . . .

فهو عجوز يتصابى . .

فإذا فاض ماتوا من الغرق . .

وإذا غاض ماتوا من العطش . .

وكثيراً ما حاولوا أن يسترضوه فأقاموا له المآدب وألقوا فى أحضانه بأجمل عرائس البلاد . .

ولكن أحداً لم يعترض على نزواته . . ولا على وحشيته وأكل لحوم البشر . .

وكان لا بد من أن « نحجر » على هذا الأب السفيه . .

وكان لا بد من أن نصادر مياهه لصالح الشعب . .

فاستدرجنا النيل إلى كهف بالقرب من مجراه . وفى هذا الكهف أعددنا له أنفاقاً هائلة . .

وعند ما دخل هذه الأنفاق وجد نفسه محبوساً . فهو لا يستطيع أن يخرج منها إلا بحساب . . فليست هذه الأنفاق إلا أنابيب ، وعلى هذه الأنابيب توجد حنفيات . . نفتحها ونقفلها عند ما نريد ، لا عند ما يريد . .

شيء غريب جداً هذا الذى صنعه أبناء النيل . . لقد كان النيل نهراً من منبعه إلى مصبه . فأصبح نهراً فقط إلى ما قبل السد . أما بعد السد فهو قناة من صنعنا . ونحن أصبحنا قادرين على أن نجعلها فى حالة فيضان دائم . . دون أن نلقى فيها بخيط واحد من فستان أى عروس !

وعند ما تنزل المياه من هذه الحنفيات ، فإنها تسقط على عجلات . . وتظل هذه العجلات تلف بسرعة هائلة . . فكأن المياه قد تحولت قطراتها إلى ملايين الأصابع ، وهذه الأصابع تدير هذه العجلات . ومن دوران العجلات تتولد الكهرباء . وتتحول هذه الكهرباء إلى أصابع سحرية تدير المصانع . . وتتحول أيضاً إلى أعواد كبريت وشموع . تنير الظلام الخالد لقرى مصر . .

ويختفى الطنبور والشادوف والساقية والمصطبة . والتواكل ومصباح الغاز والخرافات .

ولا تصبح الأهرامات هى الرمز الحقيقى لبلادنا ، فليست الأهرامات إلا مقابر تدل على تقديس مصر القديمة للموت . . وإنما يصبح السد العالى هو الرمز الحقيقى ، لأنه يدل على سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وتحكم الإنسان فى مصيره وأنه أراد ففعل . . وأنه صبر فنال . . وأنه تعب فعاش وأنه عاش كما أراد !

* * *

وبعد اليوم لن نقول : الوجه البحرى والوجه القبلى . فكلنا نقع بحرى أسوان . فكلنا نعيش فى الوجه البحرى . .

ولا بد أن تتغير نظرتنا إلى الجنوب . . فلم يعد الجنوب منفى لكل عامل وموظف . وإنما هو أمل كل صاحب خبرة . كل مهندس . كل طبيب . كل الأيدى المثقفة . .

وسيصبح كل هؤلاء ضيوفاً على السد العالى . .

ضيوف من كل البلاد التى تقع بحرى أسوان . .

إذن سيهاجر أبناء مصر من أقصى الشمال إلى أسوان . . فلم يعد من الضرورى أن يعمل الإنسان بجوار أهله . . بجوار أرضه . . بجوار المقابر التى دفن فيها أجداده . .

لن يكون المصريون كالأشجار تنمو وتكبر وتذبل فى نفس المكان . . وإنما سيتحركون . . سيعيشون فى أى مكان . . فكل مكان به مصنع وإلى جواره توجد مدرسة ومستشفى وسوق وبيت ومزرعة . .

إن السد العالى . قد سد الطريق إلى الشمال والزحف إلى الشمال . . والحياة فى مدن الشمال . .

إن السد العالى ، قد فتح الطريق إلى الجنوب ومدن الجنوب . والحياة فى هذه البلاد التى كانت مهجورة والتى كانت منفى لكل مغضوب عليه فى القاهرة والإسكندرية . .

* * *

إن جمال عبد الناصر الذى قضى على هذا الإقطاع المائى . استطاع قبل ذلك أن يقضى على الإقطاع الزراعى . .

إنه غير مجرى الحياة على جانبي النيل . .

فما أسهل أن يغير — بعماله وخبرائه — مجرى النيل، وشكل الصخور، وخريطة الحاضر، وصورة المستقبل !

لقد سافرت إلى أسوان .. فرأيت واندهشت . . وسمعت وانبهرت .. وعندما تكلمت خطبت . . وعندما كتبت تغنيت . . وبعد أن غنيت صفقت وأحنيت رأسي . .

فى الأدب والفن :

ليست الأعمال بالنيات

الأديب يجب أن يعيش عصره . وأن يعيش به . وأن يعلو عليه . .

فهو بذرة توضع فى الأرض وتنمو وتعلو على الأرض . وهى فى الحقيقة تعلو بسبب هذه الأرض .

والأديب مثل سفينة تتحرك بالماء وتعلو على سطح الماء . والذى يرى السفينة يخيل إليه أنها تجر الماء وراءها فى حين أنها محمولة على أعناق الموج .

والأديب يجب أن يصور العصر الذى يعيش فيه . .

وهو لذلك مؤرخ . .

فأهل عصره يقرأونه ويفهمونه ويحسون به . لأنه سبقهم؛ ففهمهم وأحس بهم . . فهو كتب عنهم وكتب لهم .

أى إن الأديب يكتب للناس عن الناس .

والأديب، لأنه فنان ، ليس مؤرخاً فقط ولذلك عند ما يكتب عن عصره . يضع أفكاره فى إطار يعيش بعد هذا العصر . فإذا كان التاريخ هو مادة الأديب فإن الفن هو الإطار . وكل ما هو تاريخى هو مؤقت . ولكن كل ما هو فنى باق إلى الأبد .

ولذلك فالفنان يملأ يده بالحاضر ويملأ اليد الأخرى بالمستقبل . .

أو هو ينظر بعين إلى الحاضر . . ويتطلع بعين أخرى إلى المستقبل . .

والعمل الفنى هو الجسر الذى يعبر به الأديب من الحاضر إلى المستقبل . .

ولا أدب بغير حرية . .

ولا توجد حرية جاهزة . وإنما الحرية يكسبها الإنسان ويكتسبها يوماً بعد يوم؛ فالأديب يجب أن يفتش عن الحرية له وللناس . فالحرية فى كل مكان يقيدها الفقر، ويهدها المرض . ويضللها الجهل. وعلى الأديب أن يرفع هذه القيود عن الناس . . وعليه قبل ذلك أن يتحرر هو من قيوده أيضاً : من نزواته من طبقته من أوهامه . .

فالحرية عمل مستمر . . عمل يقوم به لنفسه ولغيره . .

ولا يمكن أن يرتضى فنان حر أن تكون حريته فردية . . فيكون حراً ولا يهمه أن يبقى الآخرون غير أحرار . فهو يتحرر للناس ويتحرر بهم أيضاً . فحريته مظهرها فردى ، ولكنها فى حقيقتها جماعية . .

ولا يمكن أن يكون الإنسان أديباً يؤيد الظلم . .

فالأدب هو الحرية . ولا أديب بغير حرية . .

وهذا هو القيد الوحيد الذى يربط الفنان : هو أن يكون حراً وأن ينشد الحرية وأن يؤيدها . حرية الناس من الجوع ومن المرض ومن الجهل . . حرية الناس من الناس . . من استغلال الإنسان للأنسان . . واستعباد الإنسان للإنسان ..

هذا ما يجب أن يلتزمه الأديب . . والأديب ملتزم بطبعه . .

فلأنه أديب لا بد أن يكتب . ولأنه أديب يجب أن يراعى القواعد الفنية . ولأنه حر . فهو مسئول عن نفسه وعن الآخرين . .

والأديب يلتزم واجبه . وواجبه يستمده من حريته ومن القيم الفنية والاجتماعية . .

ومن ألوف السنين خرجت الفنون كلها من المعابد .. فيها رائحة البخور وصدى الأجراس . . ونفحات السماء . . خرجت الفنون تفسر الأديان وتدافع عنها تدعو إلى عالم فى السماء . أروع من عالم فى الأرض . .

ومن ألوف السنين كان الفنان ملتزماً لدين أو لمذهب . . وكان يدافع

عن أهله وعن قبيلته . .

وبعد ذلك خرجت الفنون من البيوت . . . ومن المعامل . فالتزم الف
أيضاً مشاكل البيت ومتاعب لقمة العيش. وكفاح العمل، وضرورة الت
الاجتماعى .

ولكن التزام الإنسان لمذهب معين لا يكفى لأن يجعله فناناً أو أد

وإنما يجب أن تكون أعماله ذات قيمة فنية . فالفن هو الذى
أى الصدق والإخلاص والحرية التى توافرت لهذا العمل الذى يقدمه لن

فى الفن والأدب ليست الأعمال بالنيات . .

لأنه من الممكن أن يكون الإنسان حسن النية وصادقاً فى الدفاع
مذهب ومع ذلك ليس أديباً ولا فناناً .

والشاعر العربى حسان بن ثابت كان من أشد الناس دفاعاً
الإسلام، ولكن النقد الأدبى لم يضعه فى مرتبة الشاعر المتنبى . .

فالنية الحسنة جداً . والهدف النبيل جداً . والإيمان الصادق
ليس هو القيم الفنية التى تجعل شعره يبقى إلى الأبد، وإنما الشعر
بالفن . . يبقى بالإطار الأبدى الذى يحرص عليه الفنان مهما كان هم
ومهما كانت غايته .

وهناك ثلاثة مواقف لأى كاتب . .

فالكاتب يكون « ملزماً » إذا كان لا حرية له فى الدفاع أو التع
عن مذهب اجتماعى سائد . فهو ليس حراً ولذلك فعمله ليس فناً .

والكاتب يكون « ملتزماً » إذا كان له مذهب اجتماعى وفلسفى . وع
طريق هذا المذهب يفسر كل شىء . وهو يلتزم بمذهبه هذا ويطبقه ع
على كل شىء . . وليس من الضرورى أن يكون هذا المذهب الاجتماع
السائد فى عصره . ولكنه يلتزم بمذهبه الخاص . يتقيد به ويطبقه . ولك
مع ذلك حر . .

ومن الممكن أن يكون الكاتب « ملزماً » و « ملتزماً » . فى نفس الوقت كأن يعتنق الكاتب مذهباً اجتماعياً . . أو المذهب الاجتماعى السائد فى مجتمعه ، وأن يؤمن بهذا المذهب . وأن يدافع عنه . فهو فى هذه الحالة ملزم بمذهب . وهو لأنه يؤمن به يجب أن يلتزمه . .

وهنا تلتقى القيود والحرية . . فالكاتب يتقيد بمذهب ويعبر عنه بحرية . . وهو سفينة تتحرك بالماء وضد الماء وتقاومه وتعلو عليه !

ولا شىء يغرق السفينة إلا الماء ، ولا شىء يعطيها الحرية من الغرق إلا الحركة . . إلا الهدف . .

والأديب الملزم هو حمام زاجل يحمل رسالة فى رجليه ويطير دون أن يشعر بأنه يحمل شيئاً . . لا هو يشعر بقيد . . ولا نحن نشعر بأنه مقيد — كما يقول توفيق الحكيم . .

* * *

ومنذ ستين عاماً وقع حادث فريد فى الأدب . . فقد تنكر كاتب عظيم لوطنه .. لشعبه . . لثورة الناس على الطغيان وتساقطوا بالألوف . ولم يشأ الأديب العظيم أن يسكت أو يدير ظهره للتاريخ وينطوى على فلسفته على المقاومة السلبية .. فعند ما طلبت إليه صحيفة « التيمس » البريطانية فى فبراير سنة ١٩٠٥ أن يقول رأيه فى ثورة العمال والفلاحين فى روسيا ، أجاب ، بأنها طائشة وأنها سابقة لأوانها . وأنهم هؤلاء الثائرين لا يريدون إلا قطعة أرض .

ذلك الكاتب العظيم هو الكونت تولستوى !

ومما قاله تولستوى أيضاً : إنه لا خلاص للمجتمع من الظلم الواقع عليه إلا بالتمسك بالقيم الأخلاقية . ولم يذكر تولستوى من هو الذى يتمسك بالقيم الأخلاقية .. الظالم أو المظلوم ؟ وما هى القيم الأخلاقية التى تشبع الجائعين وتفك قيود الضائعين ؟

وكان تولستوى العظيم ملتزماً لمذهب فى الأخلاق وفى التصوف . وكان انعزالياً فردياً . وكان فى استطاعته أن يحرص على التزامه . ولكنه خرج وثار يستنكر على شعبه أن يلتزم اتجاهاً جديداً للتحرر الاجتماعى . .

وكتب له جوركى رسالة ملتهبة ولم ينشرها مكتفياً بثورة الناس كلها على هذا الهوس الأعمى لفنان عظيم .

ومما جاء فى رسالة جوركى : إن اسمك العظيم يا كونت لا يعطيك الحق فى أن تظلم الأدباء والفنانين الذين يحبون بلادهم بصدق وإخلاص ويعملون من أجل شعبهم . . يعملون أكثر منك يا كونت . إن من حقك أن تختلف معهم . ولكن ليس من حقك أن تحتقرهم . . إنهم يموتون بالعشرات بالألوف . رجالا أبطالا وفى عزلة .. إن هذه غلطة لا تغتفر يا كونت . . إنك لم تعد تعرف ماذا يريده شعبنا . . ماذا يهم الناس ؟ ما الذى يعذبهم؟ لقد حرمت نفسك هذا الشرف . يوم سددت أذنيك عن الناس . . إنك لم تكن صادقاً ولا مخلصاً ولا كبيراً عند ما وصفت هذه الثورة بأنها حمقاء وأنها سابقة لأوانها . . وإنك أخطأت عند ما نشرت هذا فى صحيفة إنجليزية فتجعل ثورة الشعب نكتة فى أيدى الطفيليين والانتهازيين . . أنت غلطان يا كونت !

لقد كان فى وسع العجوز تولستوى أن يربط سنواته الأخيرة بالمستقبل، ولكنه حرص على أن يعتقل نفسه فى ماضيه . فتنكر للحركات التحررية فى عصره . . وآثر أن يتزمت. وأن يزم قوقعته عليه . وأن يلعن بين الحين والحين كل محاولة لإخراجه من قوقعة عزلته . من قرنه التاسع عشر .

وما فعله يوسف السباعى فى مقدمة روايته الرابعة « ليل له آخر » هو بالضبط ما يجب أن يفعله الفنان . .

أن يعيش عصره . وأن يسجله بحرية ، وأن يحرص على أنه فنان .

وأن يروى لأبناء عصره ما أحس به . . وأن يضع ذلك فى الإطار الباقى وهو الفن . .

لقد صدرت ليوسف السباعى رواية « رد قلبى » وأن موضوعها ثورة يوليو — ورواية « نادية » عن التأميم . . و « جفت الدموع » عن الوحدة مع سوريا . وقد نبه يوسف السباعى القارىء إلى أنه ليس من الضرورى أن يكتب فى السياسة . أو يكتب أدباً سياسياً . وأن أحداً لا يلزمه . وإنما هو الواقع والتجربة الاجتماعية الهائلة هى التى هزت أرضنا . وصانت عرضنا . وأكدت مثلنا . . فكان لا بد أن ينفعل كإنسان . وأن يكتب كفنان فهو ليس ملزماً ولكنه ملتزم لواجبه وضميره .

وهذا هو الإلزام والالتزام معاً . .

ومجتمعنا بعد ثورة يوليو-العظيمة له أسلوب اجتماعى وسياسى . وهذا الأسلوب نلتزمه جميعاً . وهذا الالتزام يعطينا الحرية فى أن نرى به وأن نحس به . ولأننا مؤمنون به . . فهذا الإيمان ملزم لنا .

فنحن جميعاً ملتزمون وملزمون فى نفس الوقت . .

وحريتنا فى أن نعبر وأن نحس هذه الحرية ؛ هى شهادة ميلاد متجددة للفنان . . بل وبعد أن يموت الفنان يبقى عمله الفنى . . فالفنان يموت ولكن فنه لا يموت ..

تماماً كما حدث للبطل الإفريقى الذى وصل إلى مدينة أثينا يحمل الشعلة فى السباق الطويل المشهور . . . وإن الأساطير تؤكد أنه مات قبل أن يصل إلى أثينا بساعة !

وظل يجرى وهو ميت فكأنه مات وبعد ذلك انتصر . . انتصر وهو ميت . . انتصر بعد أن مات بساعة . . أى إنه عاش بعد موته . . وكذلك الفنان يسجل انتصاراته على الزمن على التاريخ بعد موته بسنة . . أو بعشرات السنين .

هذا المجرم العقائدى

منذ أول مجنون أحب ليلى . . .

منذ أول قيس أحب لبنى . . .

منذ أول كثير أحب عزة . . .

حتى أول «حمدان» أحب «بهانة» ونحن نجد المحبين على استعداد لأن يمشوا فى الماء . ويطيروا فى الهواء ويدخلوا النار ، ويبيتوا تحت الشباك وتحت جرادل الماء . من أجل عيون المحبوبة .. من أجل نظرة من جانب من عينيها . . أو تنهيدة من قلبها . . وهذه التنهيدة ترفع فستانها فوق صدرها ولو مليمتراً واحداً . .

إن قصائد الشعراء العاشقين على قدر ما فيها من وصف للعذاب فيها تهوين أيضاً لهذا العذاب . وإنه من أجل المحبوبة لا يساوى شيئاً . . وعلى قدر ما فى هذه القصائد من بكاء ، فيها أيضاً احتمال لهذا البكاء وأكثر من البكاء . .

وفى كل قصائد الشعراء العشاق بطولات خارقة . فهو يروى لمحبوبته كيف أنه قابل الظلام والأشباح والوحوش بشجاعة نادرة ، وكيف أنه كان يضىء الليل بسيفه ، وكيف أن قطرات عرقه ودموعه هى نجوم السماء . وكيف أنه أصبح صديقاً للوحوش . والغابات والجبال . . فهو لا يخاف من الوحوش . وإنما الوحوش هى التى تخافه . كل هذا من أجل المحبوبة . .

ولكن واحداً من هؤلاء المحبين لم يفكر فى القتل . . لم يفكر لحظة واحدة فى أن يخرج من بيته أو من الكهف الذى يعيش فيه أو من الشجرة

التى يسند إليها ظهره . يمسك سيفه ويقتل أى إنسان أو حيوان أو حتى حشرة صغيرة . .

إن الناس والحيوان والحشرات كلها تهون فقط إذا اعترضت طريقه إلى محبوبته . ولكن إذا لم تعترض طريقه . فهو لا يفكر فى القضاء عليها . .

فالقتل ليس غاية . .

وإنما القتل وسيلة . . أو القتل محاولة للقضاء على عقبة فى طريقه المفروش بدمه ودموعه من أجل ست الحسن والجمال التى يحبها !

والشاعر الإيطالى العظيم « دانتى » كان يحب الفتاة الصغيرة بياتريتشه ، وقد تعذب من أجل حبها . . وتخيل يوم القيامة ويوم الحساب ، ووضع الناس كلهم فى جهنم . ثم أشعل عليهم النار . . ولكن هذه النار التى كانت ألسنتها تكوى الفلاسفة والشعراء والأدباء والفنانين . كانت تتحول إلى ماء بارد . وهواء منعش ، وجنات تجرى من تحتها ومن فوقها الأنهار لمجرد أن بياتريتشه قد أطلت بجانب من وجهها وابتسمت لفتاها الولهان . .

وكان الشاعر دانتى على استعداد لأن يحرق لها الدنيا كلها لكى تشعر لحظة واحدة بالدفء . . وكان على استعداد لأن يفرش لها الطريق من قلوب الناس إذا شاءت أن تأتى لزيارته . .

ولكن الفتاة الصغيرة لم تأت ولم تشأ أن يحقق لها شيئاً . .

وعند ما يبكى الشاعر دانتى كان يقول لها : فى طريقى إلى محبوبتى داست قدمى وردة . إننى سمعت بكاءها . كانت أوراقها تبكى بعضها على بعض . كل ورقة جفن عين . وكل عين تذرف عطراً ملوناً . . إننى مجرم يا حبيبتى . اغفرى لى جريمتى . .

ولم تغفر له تلك الجريمة البشعة . لقد قتل وردة !

مع أنه على استعداد لأن ينسف الكون كله إذا استطاع لكى يرضيها .

والشاعر الإيطالى « بترارکه» كان يحب فتاة صغيرة اسمها لورا . وكان يحتفظ لها بدموعه فى منديل . . وربما كان بترارکه هو أول من قال إن طعم الدموع مختلف عن طعم الماء . .

ولم يكن يملك جهازاً لتحليل تركيب الماء أو تركيب الدموع . ولكنه ذاق طعم الدموع . . وذاق طعم الماء الذى هو دموع السماء على ذنوب البشر . أو الذى هو مشاركة من ملائكة السماء لعشاق الأرض . .

وبترارکه هذا كان ضعيف البنية . ولكنه استطاع أن يضرب أحد الأثرياء على رأسه بقوة خارقة حتى كاد يقتله . ثم إنه فكر أيضاً فى قتله . واتهموه بالتآمر على قتل أحد الأمراء . .

ولكن بترارکه لم يفكر فى القتل . وإنما فكر فى قتل أى إنسان يعترض طريقه إلى محبوبته . . فهو مثل كل المحبين شجعان أبطال لهم قوة خارقة أمام كل عقبة تقف أو يتوهمون أنها تقف فى طريق الفتاة التى يحبونها . .

فباسم الحب . كان من الممكن لأى شاعر مفتون أن يقتل أو يرتكب أبشع الجرائم !

وقد تغيرت هذه الصورة الآن . .

فنحن الآن نعيش فى عصر الذين يقتلون لا من أجل القلب ، ولكن من أجل العقل . فالشاعر القاتل . هو مجرم عاطفى . أو هو عاطفى ارتكب جريمة . أما القاتل اليوم فهو مجرم مفكر أو مجرم عقائدى . .

فى هذا القرن قتل أكثر من سبعين مليون نسمة فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، والحروب والثورات المختلفة فى أوربا وآسيا وإفريقيا وأمريكا وكانت هذه الضحايا لأسباب غير عاطفية . أو لأسباب تتعلق بكراهية الإنسان للأنسان . . لكراهية الإنسان لنفسه . فنحن فى الحروب نقتل من لا نعرفه . ونقتل أناساً لم تكن لنا بهم صلة . ومع ذلك نقتلهم ونفوسنا

مستريحة . لأن أسباب القتل قد أقنعتنا . أقنعت عقولنا . فهذه الجريمة هي جريمة منطقية .

فالمستعمر الأبيض يقتل المواطن الأسود . مع أن المواطن الأسود صاحب حق . فالأرض ملك له وخيراتها حق له . وهو مظلوم من مئات السنين . والرجل الأبيض مقتنع بأنه هو على حق . فليس من حق الرجل الأسود أن يعيش . بل إن بقاء البيض فى أرض السود شرف لهم . فهم الذين أدخلوا السيارات والتليفونات والخمور والمخدرات والأفلام إلى بلاده . ألا يكفى هذا لكى يستسلم الرجل الأسود ؟. ألا يكفى هذا لكى يحنى جبينه. ويحنى كفاحه وتاريخه ليسوده ويدوسه الرجل الأبيض؟ فإذا ثار الرجل الأسود فجزاؤه القتل . لأنه نموذج للأنسان المتخلف الذى لا يعرف مصلحته . وهو نموذج للأنسان العاق . الذى يعض الحذاء الذى ضربه . ويعض اليد التى استعمرته . . إلخ .

فالرجل الأبيض قاتل عن منطق . مجرم لأسباب اقتصادية فلسفية !

لأنه ليس عاشقاً لآبار البترول . ولا مفتوناً مثل قيس وروميو بسن الفيل وجلد النمر . . وإنما هو مجرم فيلسوف . . مثل الذى قتل غاندى وكيندى وبرناردوت وهمرشولد وبن بركه . . وغيرهم .

فالرجل الأبيض عند ما يغتال هؤلاء البيض ، أو هؤلاء الزعماء لا يكون عاشقاً فاشلا . ولا محباً مصدوماً فى حبه . ولا مجروحاً فى كرامته . وإنما هو يقتل لأسباب فلسفية . كأن يكون القاتل شيوعياً ، والقتيل رجعياً . . أو يكون القاتل رجعياً ، والقتيل شيوعياً . . أو يكون القاتل مهوساً دينياً . . والقتيل رجلا متحرراً أو من دين آخر . .

فالقاتل الآن صاحب رأى ، صاحب عقيدة . سواء كانت هذه العقيدة خاطئة أم صحيحة . فما دام معتقداً بها فهو لا يرى فيها عيباً ، بل إنه يتصرف بمقتضاها كأنه محب مجنون . أو كأنه مخمور فقد وعيه . .

فالاعتقاد قد بلغ به درجة الهوس . .

فهو كالذى يحب بلامنطق . وهو كالذى يؤمن بلا تفكير . . مع أن عقيدته السياسية لا علاقة لها بالحب . ولكن هذه العقيدة قد سدت عينيه وأذنيه وأضاعت عقله . .

فهو مقتنع بها عقلياً . لدرجة أنه لم يعد يفكر فيها ، أى لدرجة أنه لم يعد عنده عقل !

لقد انتهى عصر المحب القاتل . .

ودخلنا فى عصر الكارهين المجرمين . .

أو انتهى عصر الشاعر الذى يجد نفسه مضطراً إلى الجريمة . .

ودخلنا فى عصر الفيلسوف الذى يستعد دائماً لارتكاب أى جريمة !

إن جوليانو القرصان الإيطالى الذى عاش فى جزيرة صقلية ، كان أحد المحبين الذين وقفوا فى وجه القانون ، يوم كان القانون حاجزاً بينه وبين حبيبته . . وقتل عدداً من الأبرياء دفاعاً عن قلبه . . عن حبه . . عن شعور خاص به هو . . فهو مجرم لأسباب عاطفية !

ولكن إزوالد وروبنشتاين لن يكونا آخر المجرمين لأسباب سياسية . . اقتصادية . . أى لأسباب منطقية !

فلا خلاف بين الناس على جانبى الإطلنطى . . ولا خلاف بين الناس على جانبى الستار الحديدى . . لا من الناحية الجسمية ولا النفسية ولا من الناحية الفيسيولوجية . . ولكن الخلاف فقط خلاف مذهبى . . خلاف عقائدى . . منطقى . . وما دام الخلاف عقلياً ، فلا بد أن تكون هناك جرائم . . يرتكبها الأفراد . . أو تقوم بها الحكومات . . لأن الحكومات تعتمد على المذهب السياسى . أى على المنطق . وإذا احتكمت إلى المنطق . فالمنطق جامد بارد كالسلاح . والأسلحة إذا احتكمت إليها فإنها لا تنثر الورود وإنما تطلق النار والدمار . .

فالمحب الشاعر يقتل فرداً واحداً . ويظل يبكيه طول عمره . .

ولكن الفيلسوف الكاره يقتل الملايين ويظل طول عمره يبكى لأنه يقتل بما فيه الكفاية . .

فنى عالمنا الكثير جداً من المنطق . والقليل جداً من الحب . . الكثير جداً من الفلاسفة والقليل جداً من الشعراء . . الكثير جداً من إز والد ، والقليل جداً من قيس وروميو وغيرهما من المجانين الذين لا يخربون العالم كما خربه العقلاء أصحاب المذاهب السياسية والعقائدية الفلسفية . . . !

لا ..
صلبوا المسيح
ولا ..
قتلوا كنيدى !

لست من رجال الدين ، ولكنى مضطر إلى الكلام من بعيد جداً عن قضية دينية قديمة لأسباب جديدة .. وليس من الصعب بعد ذلك أن تربطها بمقتل كنيدى ..

هناك خلاف بين المسيحيين على من الذى أدى إلى صلب المسيح . بعضهم يرى أن الرومان هم الذين حبسوه وحاكموه وصلبوه . وبعضهم يرى أن اليهود وراء الحبس والصلب . وأنهم الذين اراقوا دم المسيح . ولذلك فهم مصاصو دماء الأنبياء.

فالكاثوليك لا يؤكدون أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح .. والبروتستانت والأرثوذكس يؤكدون أن اليهود هم المجرمون . فهم الذين اتهموا المسيح بأنه يطالب بعرش اليهود . وكان الملك فى ذلك الوقت يهودياً ، وكانت القوات العسكرية رومانية . وطبيعى جداً أن يدافع ملك عن عرشه .. ودافع عن عرشه وسجن المسيح وصلبه بعد ذلك .. ثم إن هؤلاء اليهود هم الذين أشاروا بسجن المسيح .. وهم أيضاً الذين اقترحوا إطلاق سراح أحد المسجونين ، بدلا من المسيح ..

وكل هذا كلام قديم ومعروف .. والخلافات بين الطوائف المسيحية ، فى هذه النقطة لا حد له ..

ولكن الجديد هو أن هناك اتجاهاً واضحاً جداً بين الكاثوليك على تبرئة اليهود نهائياً من دم المسيح . . لا بأن يعلن اليهود أنهم مساكين ومظلومون وأن هذه تهمة الصقت بهم . . وقد تعذب اليهود بعد ذلك عشرات المرات . وأنهم كفروا عن هذه الجريمة البشعة مئات المرات ، وأن الذى فعله هتلر بهم ، ليس إلا انتقاماً مما فعلوه فى المسيح ، على الرغم من أن هتلر كان رجلا ملحداً ، وأن السبب لاستئصال اليهود كان عنصرياً وسياسياً واقتصادياً . .

ولكن اليهود لجأوا إلى أساليب أخرى . . لقد ضغطوا على الكنيسة الكاثوليكية . . وكان الضغط رقيقاً متواصلا . . فقد ظهرت كتب كثيرة جداً تفسر الكتاب المقدس . . وتفسر صلب المسيح بالذات ، وبأقلام الكاثوليك أنفسهم . . وكانت هذه الأقلام تلقى دمعة على الصليب وعلى المصلوب . . وكل دمعة كانت « كالأستيكة » التى تمحو الدماء التى علقت بملابس اليهود . .

وركز اليهود الضغط على البابا يوحنا الثالث والعشرين . ووافق يوحنا على أن يصدر قراراً بالعفو عن اليهود والحكم ببراءتهم من دم المسيح . والبابا — عند الكاثوليك — معصوم من الخطأ . فالذى يقوله : قانون سماوى .

ونشرت الصحف الدينية فى العالم ، وقبل وفاة البابا الراحل أن اليهود أبرياء من دم المسيح . وأن هذا الرأى منسوب إلى شخصية دينية كبرى على صلة وثيقة بالبابا . .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يعلن البابا نفسه أن اليهود ، بعد عشرين قرناً ، أبرياء من دم المسيح . .

وفى روما انعقد مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك . وناقشوا وثيقة تنادى بالإخاء والمحبة بين كل الأديان . وتنادى بالوحدة بين المسيحيين ،

وتؤكد أن الدين هو التسامح . ولذلك يجب أن يسود التسامح كل الناس من كل دين ، وكل الناس من نفس الدين . .

وأهم من هذا أنه قد حان الوقت ليعرف الناس وبصورة قاطعة أن اليهود لم يصلبوا المسيح.

وأخذت الأصوات على هذه الفقرة فوافق ٢١١٤ ضد ٤٠ صوتاً . .

واتفقوا على أن الكاثوليك فى كل العالم يرون أن اليهود لم يصلبوا المسيح وإنما الذين صلبوه وعذبوه هم الرومان الوثنيون الذين لا دين لهم ولا أخلاق لهم . . إلخ . .

وأعلنوا فى المؤتمر أن البابا الراحل كان من رأيه أيضاً ضرورة إصدار هذه البراءة لتخفيف الأحقاد الموروثة بين المسيحيين واليهود . .

ومن الغريب أن هذا المؤتمر قد انعقد بسرعة .

أى أن قرارات هذا المؤتمر ، كانت من الضرورى أن تصدر فى منتصف هذا الشهر .. أى قبل أسبوع واحد على اغتيال الرئيس كنيدى..

وكنيدى كاثوليكى . والذى قتل كنيدى يهودى ، والذى أطلق الرصاص على قاتل كيندى يهودى أيضاً . والذى يجرى التحقيق يهودى . .

فى الوقت الذى يحرص فيه الكاثوليك على عقد صلح مع اليهود يقوم اليهود باغتيال أعظم شخصية كاثوليكية مدنية فى العالم !

واليهود لا يريدون من وراء ذلك إلا أنه ليس من المعقول أن يكونوا قد اصطلحوا مع الكاثوليك وفى نفس الوقت يغتالون كيندى الكاثوليكى . وإنما الذى اغتاله شخص واحد ، مجنون أو غير مجنون فهو لا يمثل إلا نفسه . .

وهو أيضاً إذا كان يهودياً وأخطأ ، فليس معنى ذلك أن يتحمل اليهود كلهم نتائج هذا الخطأ . .

فاليهود قد أظهروا حسن نيتهم . .

والكاثوليك قد أصدروا البيانات التي يريدها اليهود ، ومن أعلى منبر مسيحي في العالم . . أما الحماقات التي يرتكبها أفراد اليهود ، فهي كالحماقات التي يرتكبها أفراد المسيحيين . . لا يجب أن يعاقب من أجلها كل الناس الأبرياء . .

ونجحت الخدعة الكبرى . . وهي تبرئة اليهود من دم المسيح ، ومن دم كيندى أيضاً . . !

وقبل أن ينجح اليهود في الضغط على الفاتيكان ، اكتسحوا المكتبات ودور السينما والتليفزيون بوثائق جديدة لتعديل التاريخ الديني للعالم كله . .

فبعد الحرب الأخيرة قرر اليهود أن ينتقموا . وأن يكون الانتقام بأيدى غيرهم . فهم حاكموا الألمان بأيدى الأمريكان والإنجليز والفرنسيين وأدخلوا الألمان السجون ، وأعدموهم ، وأذلوهم ، ثم هم عادوا إلى ألمانيا بأموال كثيرة وبشروط كثيرة . وأصبحت تهمة : أنت يهودى من أخطر التهم التي نص عليها القانون الاتحادى في ألمانيا . .

ودارت مطابع دور النشر اليهودية تعيد كتابه التاريخ . . فمن المعروف أن الفيلسوف الألماني نيتشه لا يحب اليهود ويحتقرهم . فأعادوا طبع كتبه وحذفوا منها كل عداء لليهود . وادعوا أن أخت الفيلسوف هي التي أضافت هذه الصفحات المعادية لليهود . .

وبحث اليهود عن مؤلفين جدد يتحدثون عن بشاعة النازية ومعسكرات الاعتقال . وظهرت عشرات القصص والأفلام كلها تؤكد أن الألمان مجرمون وأن النازيين وحوش، وأن اليهود مظلومون في كل العصور ، وأنهم يستحقون الشفقة والرحمة . .

ثم ضغط اليهود على كبار المؤلفين . .

فأصدر الفيلسوف سارتر كتاباً بعنوان تأملات عن المسألة اليهودية دافع فيه عن اليهود وعن قضاياهم . واتهم بالسخف والتحيز كل الذين يكرهون اليهود . وقال إن كراهية اليهود ليست إلا غيرة من الشعوب لهم . .

واصدر مسرحية « سجناء الطونا » دافع فيها عن اليهود أيضاً ضد النازيين ..

وغير الفيلسوف سارتر كثيرون جداً . .

وظهرت بطولات وهمية على الشاشة لأطفال تعذبوا فى معسكرات الاعتقال وكتبوا مذكراتهم ..

واشهر هذه المذكرات « يوميات الطفلة آن فرانك » التى ظهرت على الشاشة . . والتى تنتهى بأن الفتاة الصغيرة تطلب العفو . . تطلب من الله أن يعفو عن الألمان . فلم يكونوا أحراراً ، وإنما كانوا خائفين . وأن هتلر هو الذى ضغط عليهم ، وخيرهم بين أن يقتلوا اليهود أو يقتلهم . . واختاروا لأنفسهم الحياة . . و« يوميات الطفلة آن فرانك » ظهرت على شكل كتاب وعلى شكل مسرحية وفيلم وأوبرا وباليه !

وكلها تشيع التسامح والعفو ونسيان الماضى . .

ولم تتوقف حملات اليهود ضد النازية . . كانت تنتهز المناسبات المؤلمة الدامية ، لتزييف التاريخ . . كما حدث فى فيلم « بن هور » الذى كتبه جنرال أمريكي يهودى اسمه ويليامسون . وهو يروى قصة أمير يهودى اضطهده الرومان . تماماً كما اضطهدوا المسيح وعذبوه . كما عذبوا المسيح وطردوه من بلاده ، حتى اضطر المسيح أن يهرب إلى مصر . وهذا الأمير عذبوا أمه وأخته . . وعاشت أمه وأخته فى إحدى المغارات مصابتين بأبشع الأمراض . .

وأهم من هذا كله أن المسيح عند ما كان يحمل صليبه تقدم هذا

الأمير بن هور والدموع فى عينيه يريد أن يحمل الصليب عن المسيح . وحول الأمير بن هور أمه وأخته وزوجته . وكل اليهود يبكون على ما أصاب المسيح . .

ومن أجل هذه المحاولة ، محاولة بن هور حمل الصليب عن المسيح ، وهى محاولة استغرقت عشرين ثانية — دفعت شركة مترو ثلاثين مليوناً من الدولارات !!

وأحدث مسرحية من هذا النوع هى التى كتبتها فتاة يهودية اسمها آن وليام ليفين . والمسرحية اسمها « يكفى أن نمشى معاً » تصور لنا اثنين يمشيان فى الظلام . . واحد منهم قد وضع عصابة حول عينيه ، والآخر يرتدى منظاراً أسود . والدنيا ليل . وتحت مصباح وقف الاثنان . أما صاحب المنظار الأسود فهو أعمى . ولكنه يعرف الطريق . وأما الذى وضع عصابة على عينيه ، فليس أعمى ، ولكنه لا يعرف الطريق . وما دام لا يعرف الطريق ، فلا قيمة لعينيه ، فهو كالأعمى . . ويقول أحدهما للآخر : أنت تعرفني . ويجيب . لا . .

ويسأله : إذن كيف التفت ذراعى حول ذراعك ؟

— هل من الضرورى أن تعرفنى ؟

— لا أعرف . .

— هل أنت مسيحى ؟ . .

— هل من الضرورى أن يكون الإنسان مسيحياً ليعلطيك ذراعه . .

— إذن أنت يهودى . .

— فإذا عرفت أننى يهودى هل تسحب ذراعك لأننا صلبنا المسيح . .

— فى هذه الحالة أسحب ذراعى . . لأننى لم أكن أعرف أنكم صلبتم المسيح . . هل اعترفتم بهذا . لم يعد يهمكم شعور الناس . . سأرفع المنديل

عن عيني . . الآن فقط قد عرفت طريقي . . قد عرفت من هم أعداء الإنسانية . .

— ولكنك أنت يهودى . .

— هذا صحيح . .

— فلماذا تأثرت هكذا . .

— لقد سمعت عن جريمة بشعة . .

— ولكن ألا تعرف ، أننا لم نصلب المسيح . .

— هذا صحيح . . ولكن لماذا يقول المسيحيون إننا صلبناه . .

— لم يقل أحد ذلك . . إننا نحن الذين قلنا ذلك . .

— ومتى قلنا ذلك . .

— أنت قلت الآن . .

— وهل سمعنى كل الناس . .

— إذا قال كل يهودى مثل هذا الكلام فسيسمعه كل الناس .

— والحل ؟

— ضع المنديل على عينيك ودعنى أهلك . . ونحن نعيش فى عالم أسود . . لا قيمة فيه للعيون ! . .

. . . إلى آخر هذه المسرحية التى تدعو إلى غسل أيدى اليهودى من دم المسيح . . وإلى آخر هذه المهازل التى يقوم بها اليهود فى كل الدنيا . . يزيفون التاريخ ، لا بأيديهم ، ولكن بأيدى غيرهم . والناس الطيبون أو الانتهازيون ، يمشون وراءهم ويخلعون الأثواب الدامية عن اليهود ، ويلقونها على الرومان قديماً ، وعلى الألمان حديثاً . .

فالذى قتل المسيح أناس آخرون . .

والذى قتل كيندى أناس آخرون . .

صحيح أن القاتل الأول يهودى ، ولكنه لا بد أن يكون مجنوناً . . والقاتل الثانى يهودى ولا بد أن يكون مجنوناً . .

وإذا كانت معالم جريمة اغتيال كينيدى ، التى وقعت فى عز الظهر أمام التليفزيون والعدسات ، ورجال البوليس السرى والعلنى وفى القرن العشرين ، غير واضحة . . فهل من المعقول أن يعرف الناس من هو الذى صلب المسيح أو الذين كانوا السبب فى صلبه . . هل من الممكن أن نفصل وبوضوح وبصورة قاطعة فى جريمة وقعت من عشرين قرناً ، وفى ظروف غامضة ، ولا تتوافر فيها الأدلة ولا أركان الجريمة ! ؟

والكاثوليك يقولون : معقول !

واليهود يصفقون سعداء . بهذه العملية التى انطلت على الملايين . . ثم ينتقلون إلى حيلة أخرى ، ومجال آخر يزيفون فيه التاريخ بأسلحتهم القوية : الدموع والذهب والإرهاب !

والنظام الرأسمالى فى أمريكا يسمح بقيام مثل هذه العصابات اليهودية وأمريكا تدفع الثمن . . وقد دفعته هذه المرة غالياً . ولا بد أن تصبح الكراهية الهامسة لليهود ، كراهية صارخة داوية كالرصاص الذى أصاب كنيدى ، أصاب رجل السلام ، والرجل الذى أذاب الجليد بين الشرق والغرب .

بعد عشرين سنة

بعد عشرين سنة انتهى المشوار ! –

كل يوم جمعة ، والأعلام مرفوعة على الدواوين ، وعلى جانب الطريق ، ومن عشرين عاماً ، كنا نجرى إلى بيت رقم ١٣ فى شارع السلطان سليم « شفيق غربال حالياً » ونصعد السلم إلى الدور الثانى ونتجه إلى الشقة التى على اليمين . . وإلى الباب الذى على اليمين ، وعلى الكرسى الذى تحت لوحة بالزيت لرجل فى الأربعين من عمره له شارب مليان ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ، وحول عنقه كوفية . ولا هى ملفوفة ولا هى ملقاة على صدره ، وإنما هى أقرب إلى أن تكون متعلقة به . . كأنها هالة من أشعة الشمس عند الشروق . . أو كأنها تدل على حالة خاصة لهذا الرجل فعلى الرغم من أنه من أقصى الجنوب الحار ، إلا أنه يشكو من البرد ، وتدل أيضاً على أنه حريص على أن يحتفظ بها فى هذه اللوحة . . كأنه أراد أن يخلدها معه . . وعند ما نجلس فى هذه الغرفة إلى جوار الباب ، متجاورين متحفزين فى انتظار قدوم صاحب البيت ، والرجل الذى نتلهف عليه . . على صوته ، على علمه ، على خلقه ، على أستاذيته : عباس العقاد . .

ويدخل العقاد ، ولا يلف حول عنقه هذه الكوفية . . ويبدو أنه لم يتمسك بها . وإنما تمسك بها الفنان الذى رسمه فقط . . ويحول وما أروع ما

سمعناه . وما أكثر ما أخفيناه ونسيناه . أما الذى قاله فى الأدب والفن والعلم والطب والفلك والسياسة . . وما أروع ما أحسسنا به وهو يتحدث فى هدوء وبصوت يعلو ويهبط ولا يسكت .. ويبدو أنه يستمر استمراراً ، من حرصنا على أن يستمر . . فكأن العقاد جهاز يمتلىء بحرارة الحاضرين . . وكان العقاد يشعر أننا لا نريد أن نقاطعه ولا أن نسأله . وإنما يكفى أن يقول ويقول ويصول ويجول . . ويلقى الأضواء على كل شىء . . وكنا نحس بشىء آخر لا يعرفه العقاد .. كنا نحس بأنه يضاعف من قيمتنا . . يضاعف فى أسعارنا . . كنا ندخل إلى بيت العقاد صغاراً ونخرج وهاماتنا مرفوعة وكراماتنا مصونة . . يكفى أن يمسك الإنسان كتاباً ، يكفى أن يقبل عليه ، وأن يقبله أيضاً . وكان العقاد يقول لنا إن أحسن شىء فى الدنيا هو الكتاب . ولكن مهما كان هذا الكتاب فلا بد أن نفكر فيه . .

إن العقاد لم يسافر خارج مصر إلا مرتين . . مرة إلى فلسطين ومرة إلى السودان . ولكنه كان يقول : إننى عرف كل ما فى الدنيا وأنا هنا . فقد قرأت كل شىء . وأنا اعرف أناساً يذهبون إلى أركان العالم الأربعة ويعودون أكثر ضعفاً وأكثر ظلاماً .

وكان يقول : لا يوجد مكان فى أوروبا إذا ذهب إليه الإنسان ولمسه حلت به البركة والمعرفة !

وكان العقاد يقول : إن رحلاتى فى داخل النفس الإنسانية طويلة وعميقة ولم تنته بعد . .

وكان يقول : ليس الطريق إلى النفس الإنسانية هو أن نفكر فيها مباشرة . وإنما الطريق إليها يمر بالحشرات وبالإنسان . فليست الحشرات إلا صورة واضحة من الحيوانات . . وليست الحيوانات إلا صورة واضحة للإنسان . . أما الغموض كله ففى الإنسان . . ومع ذلك فإذا كانت النفس

الإنسانية غامضة فإن الإنسان يجب أن يبحث لها عن مفتاح . .

وقد أدمن العقاد صناعة المفاتيح . .

فى كل شخصية درسها انشغل العقاد بالبحث عن المفتاح . وكان العقاد يجد المفتاح بسهولة رائعة . وعند ما نقرأ عن تركيب هذا المفتاح يخيل إلينا أنه مفتاح صغير ، وأنه من السهل أن يجده أى إنسان . ولكن هذه المفاتيح لم تكن ميسورة ولا سهل العثور عليها فى أى وقت ولا فى أى مكان، ولكن العقاد استطاع . فعينه نافذة ويده أطول من قامته ، وظله على التاريخ أطول من المسافة بين أسوان والقاهرة إذا حسبنا كل كيلو بعام !

سألت العقاد مرة : يا أستاذ لماذا لا تتزوج ، أريد سبباً فلسفياً ؟

فأجاب العقاد : إن أمى سألتنى هذا السؤال . فهل عرفت ما الذى قلته لها .

قلت : لا . .

قال : هل تحب أن أجيبك بنفس السؤال . . فى كل مرة تسألنى أمى لماذا لا تتزوج أقول لها : لن أتزوج إلا إذا تزوجت أنت !

سألته من عشرين عاماً : وهل تحب الأطفال ؟

فأجاب : جداً . . وأبكى لآلامهم .

وسألته : ولا تحب أن يكون لك أطفال ؟

وكان العقاد يقول : كلنا نحب القمر . . فهل من الضرورى أن يملك كل منا القمر . .

أما الزوار الذين تربطهم بالعقاد صلات أكبر ولا نعرف متى بدأت، منهم : على أدهم وعبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر والشجاعى وزكى نجيب محمود واللواء شوقى عبد الرحمن وطاهر الجبلاوى . .

وكان العقاد يسترشد بهم عند ما يتذكر أحداثاً معينة فى التاريخ

القديم . وكنا نحسد هؤلاء الكبار على هذه الصلة التى لم ندركها وعلى الأيام التى ضاعت دون أن نعرف العقاد . لقد كنا نسمع عن العقاد أكثر مما نقرأ عنه ، وكنا نقرأ عنه أكثر ما نقرأ له .

إن صورته وملامحه تدل على أنه شخصية . . وشخصيته لها أبعاد ولها أعماق . وأنفه الطويل يدل على كبريائه . وشفتاه المزمومتان تدلان على صلابته ، ورأسه الكبير الملىء ، وجبهته العالية ، وقوامه الممدود ، والطربوش الذى يعلو العنق الطويل الملفوف بكوفيته ، وخطوته الواسعة ، وثقله الذى يلقيه إلى الأمام ، كلها تدل على أنه شخصية عريضة طويلة عميقة سامية

رحم الله أستاذاً علمنا الكثير جداً . وكان من الممكن أن يعلمنا أكثر لو أنه تمهل قليلا . ولكنه كأى أب لم يشأ أن يلقن أطفاله كل شىء ، لقد تركهم يعتمدون على أنفسهم . .

وبعد اليوم عاد لرقم ١٣ كل معانى السوء التى حاول العقاد أن يمحوها من عيوننا ، وعاد لصوت البومة نعيقها الرهيب ، برغم أن العقاد قد تحداها . . وعاد للشارع ظلامه وضبابه ، ولا يهمنا بعد اليوم إن كانت سلالم بيت العقاد قديمة أو قليلة . .

لقد أصبح القلم الذى يكتب به العقاد تابوتاً مقفلا ، كقبر مظلم أما روح صاحب التابوت ، وعقل صاحب القلم فباق فى الفكر العربى . . لقد مات عباس بن محمود بن العقاد من مواليد أسوان وبقى العقاد لنا وفينا وبرغمنا وبعدنا !

معدة لا تهضم الماء
وعقل يسحق الزلط!

كان الأستاذ العقاد يصف سلالم بيته القديم جداً فى مصر الجديدة بقوله : كنت أصعدها ثلاثاً ثلاثاً ، وصعدتها اثنتين اثنتين ، واليوم أصعدها واحدة واحدة . . صعدتها وبياض شعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعدها وسواد شعرى يتوارى فى بياضه !

وأنا كنت اصعد هذه السلالم من عشرين سنة . . فلا تغيرت السلالم . ولا تغيرت حماستى وأنا اصعد السلالم اثنتين اثنتين . وبالأمس صعدتها ثلاثا ثلاثا . لكن كان الأستاذ العقاد مريضاً . وجاء مرضه مفاجأة للعقاد نفسه . فلم يكن ينتظر العقاد أن يضايقه المصران الغليظ بهذه الصورة المؤلمة . . فقد أخذ العقاد يتلوى ويئن ويتوجع ويترك شقته ويذهب إلى شقة أولاد أخيه . وهى الشقة المواجهة . ويطلب إليهم أن يبحثوا عن طبيب . وعند ما جاء الطبيب فوجىء بأن العقاد مريض من نوع خاص جداً . فهو يعرف حالة مرضه . ويعرف كل تحركات أمعائه . والمصران بصفة خاصة ، فقد قرأ العقاد عن المصران الغليظ وأوجاعه وآلامه . وخرج العقاد بنتيجة واحدة هى أن المصران الغليظ عضو غريب . لا ضرورة له . وهو العضو الوحيد فى جسم الإنسان الذى يساعده عضو آخر عند ما يتعب . وهو لا يساعد أى عضو آخر عند ما يتعب . . وأنه مهما كان جسم الإنسان قوياً سليماً ، فإن اضطرابات هذا المصران تؤدى إلى لخبطة كل نظمه.

قلت للعقاد : إن توفيق الحكيم أخبرنى مرة أنك تختار الأطعمة التى تناسب صحتك باستمرار وأن توفيق الحكيم لم يندم على شىء الآن قدر ندمه على أنه لم يكن حنبلياً فى طعامه. وفى شرابه . وتوفيق الحكيم يحتفظ الآن فى جيبه بجدول للأطعمة التى يجب أن يتناولها .

وقال العقاد : إننى عند ما أدعو بعض الأصدقاء إلى تناول الطعام فى بيتى ، فأنا حريص على أن أخفى طعامى الخاص . ولا اعرف كيف التفت الحكيم إلى ذلك . إنه عفريت خبيث .

وتقلب العقاد فى فراشه . وحاولت أن أغير الموضوع . إشفاقاً عليه من المجهود الذهنى الذى يبذله العقاد فى أى كلام يصدر عنه ، جاداً أو مازحاً .

ورغم أن العقاد متماسك جداً ، ويخضع كل تصرفاته للعقل والمنطق فإنه عصبى جداً . أو بعبارة أخرى : لأن العقاد يضع كل شىء فى عقله ويحبسه جيداً . فهو متوتر الأعصاب . ليست هذه ملحوظتى .

والعقاد يحتفظ فى بيته بخادم من أقصى الجنوب . وهو الوحيد الذى يلخبط حياة العقاد اليومية . فهذا الرجل عينة بشرية ، فهو يفكر بطريقة غير مألوفة ، وطريقة غير معروفة فى الكتب ولا يمكن أن تخضع لمنطق أو عقل . أو تخضع لمنطق لا يعرفه العقاد . وهذه هى النكتة الوحيدة التى تقيم فى بيت العقاد . . وقد كتب عنه العقاد كثيراً . وكتب العقاد أيضاً إن سر اهتمامه بالحشرات والطيور يرجع إلى أن هذه الحشرات ليست إلا الصور الأولى للحياة على الأرض . فالحشرات هى « بروفات » للحياة كلها . أو الحشرات هى طفولة طفولة الحياة الإنسانية . وربما كان احتفاظ العقاد بهذا الخادم لأسباب تاريخية !

قلت للعقاد : أنا اندهش لهذا البيت الذى تعيش فيه . . لا توجد به

أية وسيلة من وسائل الراحة . . لا السرير ولا المقاعد ولا النوافذ ولا الخادم حتى الشبابيك لم تعرف الستائر وإنما هى مدهونة بالنيلة الزرقاء . .

واستعد العقاد ليرد على هذا الهجوم . . ولكن مضيت أقول له : والدواليب وعشرات الأحذية التى تغطت بها أرضية الغرفة ، حتى أولاد أخيك ليسو هم الذين يملأون وحشتك وليسوا هم الذين يسعفونك فى كل وقت . .

ومضيت أقول له : إن أصغر إنسان يمسك قلماً فى هذا البلد أو فى أى بلد أخرى عنده بيت أحسن من بيتك وأنا اعرف ما الذى ستقوله دفاعاً عن هذه الملاحظات . ولكنى لا أراها مقنعة . .

وكأننى لم أقل شيئاً قال العقاد : يا مولانا . . هذا البيت يستمتع بمزايا فلكية نادرة . . فالشمس تدخله من جميع الجهات ، فى جميع ساعات النهار ..

وأشار إلى أولاد أخيه أن يفتحوا النوافذ كدليل عملى على أن العقاد محق فى فلكية هذه الشقة التى يسكنها من أربعين سنة !

وتندهش إذا ذهبت إلى بيت العقاد . ومررت على المطبخ وأنت فى طريقك إلى مكتبته حيث توجد آخر ما أخرجته المطابع فى الدنيا . . آخر كتب عن الصواريخ . وأول اكتشافات فى الأدب اليونانى والفلسفة الإنجليزية والتربية الجغرافية . واليوجا والصوفية والحشرات . . فإذا دخلت المطبخ أحسست أن هذه غرفة استأجرها سراً أحد بوابى العمارة . ففيها صفائح وزجاجات فارغة وعلب ووابور غاز . على هذا الوابور يطهى طعام العقاد وقهوة الزائرين . وأعتقد أن الوابور كان هدية من صاحب البيت . وربما كان هذا أول وابور غاز وصل مصر من خمسين سنة !

وتجد أنه لا داعي لأن نسأل الرجل الذى يضرب فى كل أسرار الكون والنفس والحيوان والصخور والمصران وكل الغدد والتيارات الأدبية والسياسية . والمريض الآن ، لا داعي مطلقاً لأن تسأله عن سر احتفاظه بهذا الوابور .

سيقول لك : إذا اشترى بوتاجاز فسيؤدى إلى حريقة فى البيت كله أو سيؤدى إلى اختناق العقاد عند ما يخطىء الخادم فى إقفال أنبوبة الغاز .

وإذا قلت له : غير هذا الخادم ..

يكون رد العقاد : ومن الذى يضحكنى . ومن الذى يحدثنى عن الإنسان من عشرات الألوف من السنين .

ودفعت الباب المفتوح ورائى برفق حتى لا يقع فينكسر . وتزحلقت على السلالم المكسرة التى صعدها العقاد إلى مكتبة تضم أربعين ألفاً من الكتب يتوارى وراءها رجل هو عينة بشرية ، يعمل طول النهار فى تسليك وابور غاز قديم . يطهو عليه أسهل الأطعمة فى الدنيا : الطعام المسلوق للعقاد . فمعدة العقاد لا تهضم الماء . وعقل العقاد يهضم صخور أسوان !

ليالى القاهرة

أنا واحد من ملايين النمل الأبيض الذى يجرى كل ليلة فوق حيوان ضخم . . وحش . . أسود . . نائم فى قلب الصحراء . .

كل ليلة أجرى فى شوارع القاهرة . . هذا الوحش الماثل . . أجرى برجلى وبسيارتى وسيارات أصدقائى . . الشوارع طويلة مظلمة كأنها جثث ملقاة . . قتلها النهار . . فماتت فى النيل . . العمارات عالية صماء . . جدرانها رطبة . . زجاجها مقفل . . وأبوابها أيضاً . . لا شىء مفتوح فى القاهرة إلا الشوارع . . ولكن إلى أين : . إلى لاشىء . .

وفى أول كل ليلة نتفق أين نذهب ؟

ونختار مكاناً وبعد مناقشات وتفكير وأخذ ورد . . وأخيراً نتفق على المكان . . نفس المكان الذى نلتقى فيه كل ليلة !!

كأن القاهرة كلها . . بضخامتها وفخامتها . . واتساعها وطولها وعرضها . . وعماراتها وشوارعها وملايينها الأربعة . . ودور اللهو والسينما ودور الصحف ومطاعمها ونواديها . . كأن هذه الهائلة المخيفة المريعة . قد ضاقت فى خمس أو ست غرف نلتقى فيها كل ليلة . . وبعد تفكير ومناقشات نختار نفس المكان . . كأننا نوهم أنفسنا فى كل مرة أن هذا المكان جديد . . كأننا لم نعرفه قبل ذلك . . لم نجلس فيه . . لم نلفه . . لم تكن مقاعده الجلدية التى تشعر أنها مسلوخة من نفس الحيوان الكبير الذى نعيش فيه . . حتى الجرسونات مللنا وجوههم وأصواتهم . . إننا نناديهم ولا ننظر إليهم . . نكلمهم ولا ندعهم يردون علينا . . ندفع

لهم الفلوس . . وكأننا بلاعيون . . إننا نوكل دفع الحساب إلى أصابعنا . فهى وحدها التى تعرف الطريق إلى أيدى الجرسونات . .

ولكن أيدينا أحسن حالا منا . .

إن أيدينا يمكن غسلها وتنظيفها . . بل يمكن تبديل رائحتها ولونها أما نحن . . فكما نحن . . لا تبديل . . لا تغيير . . وعندما نبدل ونغير . . فإننا نختار نفس الثوب . . نفس الأكل . . نفس الشرب . . نفس المكان . .

إن القاهرة الكبيرة تشبه ثوباً واحداً ترتديه . . لقد اتسع الثوب وأحياناً تشعر أنه ضيق . . وأنه خشن . . وأحياناً يقع من فوق أكتافك . . وأننا عراة . . وأحياناً تشعر أنه « محزق » وأنه خانق . . وأنه فوق الركبة . . وأنه فوق الصدر . . وتشعر بأنه ملفوف على شكل « طوق » وهذا الطوق نضعه فوق رءوسنا . . وأقدامنا تحملنا إلى هدفنا كل ليلة . . كل ليلة . .

هذا الثوب الواحد الذى تقلعه وترتديه كل ليلة رائحته « عرق » رائحته ناس . . كثيرون . . ملايين أربعة . .

هذه هى حياة النمل الأبيض الذى يزحف بلا توقف على هذا الحيوان الضخم النائم فى قلب الصحراء على جانبى النيل . .

كل ليلة تشعر بهذا الضياع . . بهذه المدينه . . كل ليلة نبحث عن مكان . . نجلس فيه . . عن مكان نستريح إليه . . ولا نجد إلا المكان الواحد الذى نختاره ونلعنه . والذى نجلس فيه وأنوفنا مسدودة منه . وعيوننا مغمضة عليه . وآذاننا قد التفت حولها أصابعنا . .

أنت لا تصدق لأنك تعيش فى مدينة صغيرة . . وتتخيل أن الحياة مملة فى مدينتك . . وأنت تتخيل أنك لو ذهبت إلى القاهرة فإنك ستجد

عشرات الأماكن .. مئات المطاعم على النيل .. ويكفى المشى فى شارع سليمان أو شارع عماد الدين أو قصر النيل .. وتتخيل أن حياة الصحفيين .. يا بختهم يا سعادتهم .. بأن حياتهم مليانة بالنجوم والكواكب والسهرات والهيصة: نهارهم ليل .. وليلهم نهار .. وفيه طرب وحظ . .

وبينى وبينك هذا ممكن جداً . . وليس فيه صعوبة فنحن نعرف بحكم عملنا معظم الناس الذين تراهم وتقرأ عنهم . . ولكننا مشغولون . . والناس مشغولون أيضاً . . وهم مثلنا كل شىء فى حياتهم متكرر . .

ثم إنها نفس المشاغل والمشاكل . . نفس الوجوه . . نفس الكلام فى نفس الظروف . .

كل أبناء العواصم قرفانون . . ضائعون . . ضالون . . . كل ليلة . .

وعندما يريدون النجاة من هذا الضلال فإنهم يجتمعون فى مكان واحد . . هذا المكان الواحد هو هو لم يتغير . . ولا يستطيعون تغييره إنه كافتيريا هيلتون أو كافيتيريا سميراميس ..

كل ليلة . . فى نفس الوقت . . ونفس الظروف . . ونفس الوجوه . . وبنفس الحماس وبنفس القرف . .

كأن العاصمة الكبرى ليس فيها مكان إلا هذا المكان . . كأن الناس بلا إرادة بلا قدرة على الاختيار ، كأنهم فراش يتجه نحو الضوء ثم يحترق . . إنهم فراش يجرى . . ويجرى ويلهث ثم يرتمى عند نفس المكان . . يقع عليه . . وفمه على التراب . . كأنه يقبله وهو فى نفس الوقت يلعنه . .

أنا أقول لك ما هو شعور أبناء العواصم الكبرى . .

شعورهم أنهم كثيرون جداً . . وإنه إذا سقط واحد فى الطريق . . أو حتى فى بيته . فإن أحداً لا يدرى . . يموت منا الكثيرون . . أصدقاء . . .

زملاء أعزاء . . وكأن شيئاً لم يحدث . . فالحياة تستمر . . والجرى فى الشوارع الفارغة والبحث عن المكان الواحد . . عن الكافتيريا التى تشبه غرف الغاز . . أو تشبه غرف التعذيب . . هل هناك تعذيب أكثر من أن يتسلط الناس كلهم بعضهم على بعض . . فرن . . نار . . جحيم . . يتلعبط فيه الناس وهم على قيد الحياة . . ويلعنون المكان ويعودون إليه . .

هل تعرف شعور أبناء العواصم الكبرى ؟

شعورهم هو أن هناك قوة كبيرة جداً من الشوارع والعمارات تجعلهم تافهين . . تجعلهم لا قيمة لهم . . تجعلهم يفقدون وزنهم . . تجعلهم يسبحون فى بحر هائل هائج اسمه اللامبالاة . . فلا أحد يبالى بأحد . . ولا أحد يدرى بأحد . . إن كان حياً أو ميتاً . .

كل شىء لا يريد أحداً . .

كل شىء يسلب أهميتك وضروريتك التى تشعر بها وأنت فى أهلك . . بين أصدقائك . .

فأنت إذا كنت أباً مثلا . . وزوجتك تنتظرك، وأولادك . . لك أهمية . . لك سعر . . اختفاؤك يحدث كارثة فى بيتك . . اختفاؤك معناه اهتزاز عنيف لكل الذين ارتبطوا بك . .

ولكن ما هو شعورك وأنت فى الشارع ؟

طبعاً لاشعور لك . . لا قيمة لك فلا انت تساوى الأب ولا الابن . . ولا تساوى أى شىء . .

ولذلك فشعور أبناء العواصم هو أنهم لا يساوون شيئاً . . وهو أنهم بلا وزن . . بلا قيمة . . ولذلك يحرصون على أن يتلاقوا . . أن يتماسكوا أن يعطوا لأنفسهم فرصة ، ليكون لهم سعر . . ثمن . . وزن . . قيمة . .

أما شعور أبناء القرى فمختلف تماماً . . كلهم مع بعض . . كلهم

متقاربون كل الناس يسمعون كل الناس .. ويتكلمون مع الناس .. ويشعرون بكل الناس .. الذى يقول : آه فى أبعد أطراف القرية . يشعر به كل أبناء القرية . ويبكون له ويصلون من أجله .. حتى لو لم تكن بينهم صلة .. يكفى أنهم من قرية واحدة ..

أما فى المدينة ، أما فى العاصمة فلا أحد يعنيه أحد .. حتى أقرب الناس إليك ، بعيد عنك ..

فالعواطف يقويها القرب ..

أما البعد فيضعفها ..

وكلما طال شارع ابتعدت المسافات التى بين قلوب الناس .. حتى تتلاشى تماماً .. كما تتلاشى العمارات العالية كلما ابتعدنا عنها .

فالعاصمة وكل عاصمة فى العالم .. صغيرة رغم ضخامتها .. ومسدودة الشوارع رغم أنها طويلة . وبلا أماكن للهو والمرح .رغم كثرة هذه الأماكن

ومهما تحركنا فيها . ومهما جرينا وانطلقنا . فإننا نتحرك فى دائرة محدودة . وبأصدقاء محدودين ونتسلى بأشياء محدودة .. نفس الوجوه ونفس الملل والقرف .. إنها ليست عاصمة التى نعيش فيها .. إنها « عاصرة » عصرتنا فلم يبق فينا إلا الجلد والبذر ..

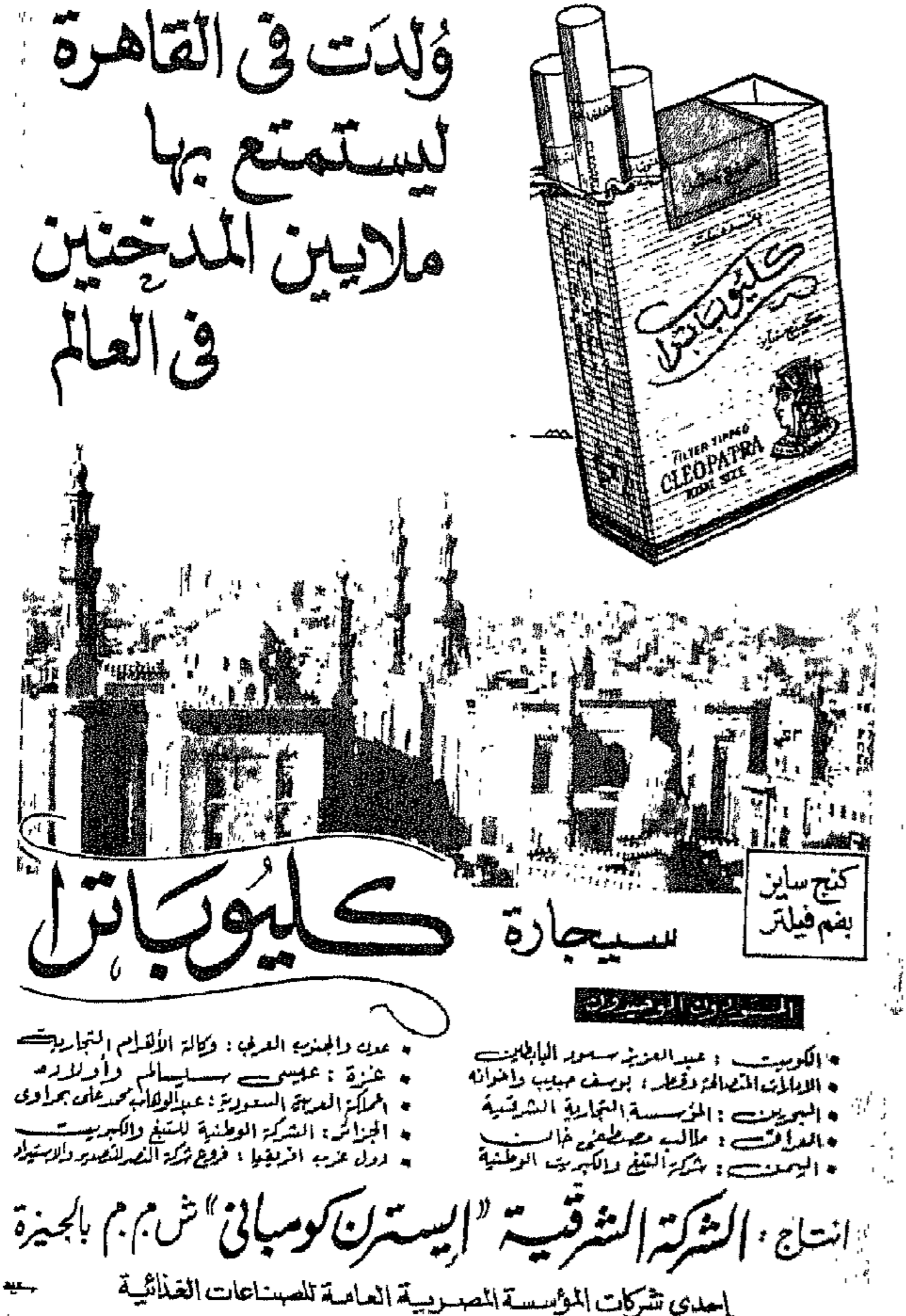
فهل تعيش فى القاهرة ؟

نصيحتى : لا ! ابعد عن الملل وعن القر ..

[ملحوظة : لم أستطع أن أكمل كلمة « القرف » من شدة قرفى !]


الجمعية التعاونية للبترول
ش ٠ م ٠ ع
محطة خلط الزيوت بالسويس
انتاج
عام ١٩٥٢
١٥٧٢ طن
إنتاج
عام ١٩٦٥
٩٠٠٠ طن
استكمالا
للهدف الذي
تتوخاه الدولة لكي
تحقق الاكتفاء الذاتي
وانتاج جميع أنواع الوقود ومشتقاتها
وكذلك الزيوت المعدنية التي كانت
البلاد تستوردها من الخارج بالعملة
الصعبة، تضمنت الخطة الخمسية الأولى
إنشاء مصنع للزيوت المعدنية بالسويس تبلغ
طاقته الإنتاجية السنوية ٦٠ ألف طن. ويكون
إنتاج المصنع الجديد من الزيوت الأساسية التي تتطلب
عمليات خلط ومعالجة وإضافات لتطابق
المواصفات العالمية، وقد أقامت الجمعية
التعاونية للبترول محطة خلط جديدة
بالسويس زودتها بأحدث المعدات
الخاصة بالخلط واعداد الزيوت
لتطابق الزيوت
المستوردة العالمية.
زيت التعاون
المخصوص
للخدمة الشاقة
الجمعية التعاونية للبترول

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر


وُلدَت فى القاهرة
ليستمتع بها
ملايين المدخنين
فى العالم
FILTER TIPPED
CLEOPATRA
KING SIZE
كنج سايز
بفم فيلتر
سيجارة كليوباترا
المستوردون الوحيدون
• الكويت : عبد العزيز سعود البابطين
• الإمارات المتصالحة وقطر : يوسف حبيب وإخوانه
• البحرين : المؤسسة التجارية الشرقية
• العراق : طالب مصطفى خالد
• اليمن : شركة التبغ والكبريت الوطنية
• عدن والجنوب العربى : وكالة الأقدام التجارية
• غزة : عيسى سالم وأولاده
• المملكة العربية السعودية : عبد الوهاب محمد على بحراوى
• الجزائر : الشركة الوطنية للتبغ والكبريت
• دول غرب افريقيا : فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد
انتاج : الشركة الشرقية "ايسترن كومبانى" ش.م.م بالجيزة
إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	